■ □ علمـــاء الدين □ ■

قراءة في الأدوار والمهام

الطبعة الثالثة

١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م

■ □ ■ علماء الدين ■ □ ■

قراءة في الأدوار والمهام



الحمد للّٰه ربّ العالمين

اللهمّ صلِّ وسلِّم وبارك على نبيّنا محمّد

وآله الطاهرين وصحبه الطيبين

بمثابة تقديم

لم يستطع التقدّم العلميّ والتكنولوجيّ الهائل الذي حققته الحضارة الغربية المعاصرة إلغاء الدين في حياة الإنسان، ولا التعويض عنه والحلول محلّه، كما توقّع المنبهرون بهذه الحضارة المادّية في مطلع القرن العشرين.

بل على العكس من ذلك، فقد أفرزت هذه الحضارة الكثير من الأزمات الاجتماعية، وأثارت العديد من التساؤلات الفلسفية والفكرية، ووضعت الإنسان أمام تحدّيات صارخة في مختلف جوانب الحياة.

ممّا أكّد لإنسان العصر ضرورة العودة إلى الدين، والتفيّؤ بظلاله الوارفة وأحضانه الدافئة، هرباً من العراء والتصحّر المادّيّ الّذي أفقد الإنسان إنسانيته، وأضاع أحاسيسه ومشاعره النبيلة، وحوّله إلى أداة وسلعة تتحدّد قيمته بمدى إنتاجه المادّيّ، ويُتعاطى معه على أساس نفعيّ مصلحيّ مجرّد.

وعودة الدين إلى حياة الإنسان، أو عودة الإنسان إلى أحضان الدين، في هذا العصر، ظاهرة عالمية واضحة في كلّ أرجاء المجتمعات البشرية، وضمن مختلف الديانات، إلاّ أن الإسلام يأتي في طليعة الديانات الأوسع نموًّا وانتشاراً، والأقوى حضوراً وإحياءً في ساحة معتنقيه.

هذه الظاهرة تجعل الدين، من جديد، على محكّ التجربة العنيفة، وأمام الامتحان الصعب...

فهل يقدّم للبشرية ما تحتاج إليه من إجابات؟

وهل يمتلك الحلول والمعالجات للأزمات الحادّة الّتي تعاني منها المجتمعات الإنسانية المعاصرة؟

إنّ علماء الدين هم الجهة المعنية أساساً بهذا التحدّي الّذي يواجهه الدين اليوم، فهم المتخصّصون في دراسته، والمتعمّقون في معرفته، والمتصدّون لنشره وتبيين مفاهيمه وأحكامه.

وعلى عاتقهم تقع مسؤولية تقديم البرامج والمعالجات للإشكالات المثارة، والتحدّيات القائمة، على ضوء هدي الإسلام ومن خلال مبادئه وتعاليمه.

لكنّ المشكلة أنّ الكثير من علماء الدين يعيشون الغربة عن عصرهم، فلا يواكبون التطوّرات، ولا يدركون عمق التحدّيات، وتشغلهم اهتمامات العصور الماضية في مجالات الفكر والفقه.

***

تعيش الأمّة الإسلامية واقعاً متخلّفاً عميق الجذور، فبينها وبين

ركب الحضارة المادّية المتقدّم مسافة شاسعة.

وفي شتّى مجالات الحياة، تواجه المعضلات والتحدّيات. فالوضع السياسي مضطرب في أغلب الدول الإسلامية، من جرّاء فقد الاستقرار والأمن، حيث تنعدم الديموقراطية، وتغيب فرص المشاركة السياسية والتداول السلميّ للسلطة...

والحالة الاقتصادية سيّئة، مع وفرة الإمكانات والثروات في العديد من البلدان الإسلامية، لكنّ الإدارة متخلّفة، والتنمية الاقتصادية متعثّرة.

والحركة العلمية والفكرية ضعيفة بطيئة، حيث يقلّ الإبداع والتطوير.

والعلاقات الداخلية بين الدول والجهات والقوى المختلفة في الأُمّة لا تتّسم بالتفاهم والانسجام، بل تسودها حالات النزاع والخصام.

لكنّ ما يبعث الأمل هو حركة جماهير الأمّة، وانبعاث الصحوة الإسلامية المباركة في هذا العصر.

هذا الانبعاث بحاجة إلى مناهج ورؤى فكرية ثقافية تصوغ ذهنيات أبناء الأمّة، وتحفظ أصالتهم، وترشد حركتهم، وتعينهم على استيعاب تطوّرات العلم والفكر. وبحاجة إلى برامج وخطط عملية لبناء المستقبل المنشود. وإذا لم تتوفّر المناهج الفكرية والبرامج العملية، وبقي الحماس والاندفاع وحده سيّد الموقف، فإنّ هذا الانبعاث تتهدّده أخطار عظيمة، قد تنحرف بمساره، وتغتال الآمال المعقودة عليه.

وما يلاحظ الآن من وجود حالات تزمّت وتطرّف عند بعض

الجهات العاملة باسم الإسلام، أو سياسات خاطئة منحرفة تمارسها قوى إسلامية في موقع السلطة والحكم، كلّ ذلك مؤشّر على الفقر في المناهج والبرامج الفكرية العملية، يثير القلق على مستقبل الدين والأمّة.

والأنظار شاخصة نحو علماء الدين لكي يتصدّوا لإبداع المناهج، وابتكار البرامج المنبثقة من وحي الدين، الّتي تساعد الأمّة على إنجاز عملية النهوض والتغيير، وترسم أمامها طريق المستقبل الحرّ الكريم.

***

علماء الدين بما يحملون من هدي الرسالة، وما يملكون من تأثير روحيّ على الناس، وموقعية ونفوذ في أوساطهم، يشكّلون رصيداً ضخماً، ومخزوناً هائلاً من القدرة والإمكانية، إذا ما وظّف في مشروع النهضة والبناء الحضاريّ، فسيخلق أمواجاً من الفاعلية والنشاط، وسيدفع بحركة الأمّة أشواطاً بعيدة إلى الأمام.

إن أكثر علماء الدين لا يدركون خطورة الموقعية الّتي يمثّلونها، ولا يعرفون حجم القدرات الّتي يمتلكونها، ولا أهمّية الدور الّذي يمكنهم أداؤه لمصلحة الدين والأمّة، لذلك ينطوون على أنفسهم، ويكتفون بممارسة أدوار تقليدية محدودة.

كما أنّ أغلب جماهير الأمّة تجهل مدى مسؤولية علماء الدين، لذلك تسكت على تقاعسهم، وتقبل منهم اليسير من المهامّ الدينية المألوفة.

***

المطلوب من علماء الدين في هذا العصر، بالدرجة الأولى، تجديد مناهج الاجتهاد في الدين، لاستنباط الحلول والمعالجات لما يواجه البشرية من مشكلات وأزمات. وذلك يقتضي فهم قضايا العصر، والانفتاح على تطوّرات العلم والحياة، والتحرّر من ضيق الأفق والقوالب الجاهزة في التفكير، ممّا يفقد الاجتهاد معناه، ويحوّل العلماء المعاصرين إلى مقلّدين ومتّبعين لآراء السالفين.

يذكر الراصدون لتطوّر حركة الاجتهاد والفتوى أنّ ركوداً وجموداً أصاب الوسط العلميّ، بعد عهد الشيخ محمّد بن الحسن الطوسيّ، الملقّب بشيخ لطائفة، والمتوفّى سنة ٤٦٠هـ حيث (لم يكن من الهيّن على أحد منهم أن يعدو نظريات شيخ الطائفة في الفتاوى، وكانوا يعدّون أحاديثه أصلاً مُسَلّماً، ويكتفون بها، ويعدّون التأليف في قبالها، وإصدار الفتوى مع وجودها تجاسراً على الشيخ وإهانة له، واستمرّت الحال على ذلك حتى عصر الشيخ محمد بن إدريس الحلّيّ المتوفّى سنة ٥٩٨هـ، أي بعد ١٣٨ سنة من وفاة الشيخ الطوسي فكان الشيخ ابن إدريس يسمّي علماء عصره بالمُقَلِّدة، وهو أوّل من خالف بعض آراء السيخ وفتاواه، وفتح باب الردّ على نظرياته. ومع ذلك فقد بقي العلماء على تلك الحال، حتى إن المحقّق الحلّيّ المتوفّى سنة ٦٧٦هـ، وابن أخته العلاّمة الحلّيّ المتوفّى سنة ٧٢٦هـ، ومن عاصرهما بقوا لا يعدون رأي شيخ الطائفة)[١]، وذلك بعد حوالي ثلاثة قرون من عهد الشيخ الطوسيّ.

---

(١) السيد محسن الأمين. أعيان الشيعة ج٩، الطبعة الثانية ١٩٨٣، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات) صفحة١٦٠ (بتصرف).

ويبدو أن هذا الشلل والركود رأي الأعلام السابقين أصبح منهجاً مستمرًّا في أوساط علماء الدين إلاّ ما ندر. والحاجة ماسّة في هذا العصر لجرأة ابن إدريس وشجاعته العلمية، ليتحرّر العلماء من ربقة رأي المشهور وأقوال علماء السلف، ويتعاملوا مع النصّ الشرعيّ مباشرة، وبالانفتاح على الواقع والتشخيص الدقيق للموضوعات.

ومع أن الفقهاء في مجال الاستدلال والبحث لا يجدون مستنداً ولا دليلاً شرعياً على الأخذ والالتزام برأي المشهور، ولا يقبلون حجّيّة الشهرة في الفتوى، إلاّ أنهم عملياً يتقيّدون بذلك.

«إن وجه حجّيّة الشهرة أحد الأمور المذكورة من أدلة حجّيّة الخبر الواحد أو المشهور والمقبولة أو بناء العقلاء، لكن شيئاً منها لا يصلح للاستناد لما عرفت من المناقشة في الجميع، ومع ذلك فلو لم يوجد في المسألة دليل يصح الاستناد إليه مما يكون محتملاً لاستناد المشهور، وقامت الشهرة على الفتوى بشيء أشكل الفتوى على خلاف ذلك، مستنداً إلى الأصل العملي أو ما أشبه، إذ الغالب حصول الاطمئنان بوجود دليل معتبر في المسألة لم تصل إليه اليد، خصوصاً إذا كانت الشهرة شهرة القدماء»[1]. فالإنشداد النفسي بالاطمئنان والثقة بالقدماء هما باعث هذا المسلك.

***

(١) السيد محمد الحسيني الشيرازي. الوصول إلى كفاية الأصول ج٣، الطبعة الثانية ١٩٨٨م (قم: دار الإيمان) صفحة٤٧١.

علماء الدين ليست مهمتهم إصلاح أمور الناس في الآخرة فقط عبر توجيههم إلى عبادة الله وطاعته، بل هم معنيون، قبل ذلك، بإدارة شؤون الناس في الدنيا وإصلاح أوضاعها.

ذلك أن الدين الذي يحملون رسالته ليس برنامجاً للنجاح في الآخرة فحسب، بل هو نظام لإسعاد الناس في الدنيا قبل ذلك.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2].

و«بالدنيا تُحرز الآخرة» كما يقول الإمام علي عليه السلام.

و«ليس منا من ترك دنياه لدينه أو ترك دينه لدنياه» كما في حديث آخر. و «أعظم الناس همًّا المؤمن يهتم بأمر دنياه وأمر آخرته» كما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وذلك يعني أن على علماء الدين الاهتمام بمختلف شؤون المجتمع، وأن يوجهوا عنايتهم لجميع حقول الحياة.

***

عالم اليوم هو عالم التكتلات الدولية، والشركات المتعددة الجنسيات، والمؤسسات والمنظمات التي تعمل على مستوى الكرة الأرضية، ولا

---

(١) سورة الحديد، آية ٢٥.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٠١.

قيمة في هذا العالم للنشاط الفردي والأعمال الشخصية المحدودة.

وأسلوب العمل السائد لدى الأغلب من علماء الدين العاملين هو التحرك الفردي، حيث تنعدم التجمعات والمؤسسات، ويعتمد كل عالم في حركته على نفسه، وعلى من يلتف حوله من الأتباع دون مأسسة أو تنظيم.

إن من الضرورة بمكان اعتماد أطر للتشاور والتعاون بين علماء الدين على مستوى الأمة، وعلى مستوى المناطق والمجتمعات، وأن يمارس العلماء فاعليتهم ونشاطهم العلمي والعملي ضمن مؤسسات تقوم على أساس النظم الإدارية الحديثة، وتستفيد من تقدم العلم وتطور وسائل الاتصال.

إن المهتمين بمختلف جوانب العلم والحياة، من سياسيين وعلماء الطبيعة وخبراء الاقتصاد وباحثي الاجتماع، وحتى هواة الرياضة والفن، لديهم مؤتمرات وملتقيات يتداولون فيها شؤون اهتماماتهم، ويتبادلون عبرها الرأي والخبرة والتجربة، ولديهم مراكز دراسات وأبحاث يستندون إليها في أعمالهم وأنشطتهم، فإلى متى يبقى علماء الدين ضمن الحالة الفردية والشخصية، واعتماداً على القدرة الذاتية المحدودة؟

***

موقعية علماء الدين، والأدوار التي يجب أن يقوموا بها، والمهام التي عليهم أن يتحملوها، وكذلك واقع علماء الدين بما فيه من نقاط ضعف

وقوة، ومن ممارسات سلوكية، وأساليب عمل... كل ذلك يجب أن يُفتح فيه باب النقاش، ويُتاح فيه مجال البحث.

فالأمر لا يتعلق بحالات خاصة لأشخاص، ولا بقضايا تمس فئة محدودة، بل هو مرتبط بالشأن العام، ومتصل بمصلحة الدين والأمة.

وقد آن أن تُعالج مثل هذه المواضيع بجرأة وانفتاح، وعبر الحوار الموضوعي، وما يُشاع من أن الأمور المرتبطة بالعلماء تكون محدودة التداول فيما بينهم، وتناقش في غرفة مغلقة بعيداً عن الأضواء، غير صحيح وغير ممكن في هذا العصر الذي يتسم بالانفتاح وتقدم الإعلام وثورة المعلومات.

وعلى هذه الخلفية تأتي صفحات هذا الكتاب، الذي كُتبت فصوله في فترات زمنية متباعدة، ونشر قسم منها في بعض المجلات الفكرية الإسلامية.

وإذ أقدم هذه الفصول مجموعةً ضمن كتاب، بين أيدي أساتذتي العلماء، وإخواني طلاب العلوم الدينية، والنخبة الواعية من أبناء المجتمع، لأرجو أن يكون مساهمة في بلورة الرؤية، ووضع برامج عمل للأدوار والمهام التي يضطلع بها عالم الدين في حياة المجتمع.

وقد تكون بعض الأفكار والمقترحات الواردة في فصول هذا الكتاب مورداً للنقاش وإبداء الرأي، وذلك أمر مطلوب ومفيد، لإثراء البحث وتلاقح الأفكار وتكامل الآراء.

أخذ الله بأيدينا جميعاً لما فيه الخير والصلاح.

الفصل الأول

علماء الدين والشأن الثقافي

مدخل

لا بدّ للدين من رجال يتخصصون في دراسة مبادئه وأحكامه، فهي، لشمولها وسعة استيعابها لقضايا الإنسان والحياة، لا يمكن الإلمام والإحاطة بها دون دراسة معمّقة واهتمام مركز.

وخاصة في هذه العصور المتأخرة عن عصر النص الشرعي المتمثل في القرآن الكريم والسنة المطهرة، فإن الوصول إلى الكثير من المعارف والأحكام الشرعية، يستلزم التوفر على مستوى من الخبرة والمعرفة في مجالات علمية وأدبية مختلفة، ليتمكن الإنسان بها من اكتشاف النص الشرعي الصحيح وإدراك مدلوله.

فقد حدث تغيير في أساليب التعبير، واختلاف في المصطلحات بين الأجيال اللاحقة والسابقة، كما تعرض قسم من النصوص الشرعية للتلف والضياع، وحصل شيء من الدسّ والوضع في الأحاديث

والروايات، فأصبحت مهمة استكشاف الحكم الشرعي بحاجة إلى معرفة بعلوم اللغة العربية وآدابها، وإلمام بعلم التفسير الحديث، واطلاع على أصول وقواعد الاستنباط، ودراية بآراء أئمة الفقه.

وذلك بحاجة إلى بذل جهد كبير، وصرف وقت واسع، لا يتأتى إلا بالتوجه والتخصص، كما هو الشأن في مختلف حقول العلم والمعرفة وشتى ميادين الحياة.

بالطبع، فإنه لا يمكن لكل أبناء الأمة التوجه لدراسة الدين والوصول إلى درجة التخصص فيه، لأن ظروف الحياة لا تسمح بذلك، كما أن القابليات النفسية والذهنية ليست عند الجميع في مستوى الرغبة والاستيعاب.

فكيف إذاً يستطيع كل مسلم أن يتعرف مبادئ وأحكام دينه، إذا كان الوصول إلى ذلك بحاجة إلى مستوى علمي يصعب توفره لدى الجميع؟

الجواب عن ذلك بيّن واضح، لأن الإنسان يواجه هذه المعادلة في مختلف مجالات الحياة، فهو لا يستطيع التخصص في الطب والهندسة والزراعة والصناعة وسائر المجالات مع حاجته إليها، لكنه يعتمد على المتخصصين في كل حقل، حيث يتقاسم الناس بينهم الأدوار والتخصصات، ويعتمدون على بعضهم بعضاً، كل في مجال اهتمامه وتخصصه.

وهذا ما أمضاه الشارع وأقره في مجال الوصول إلى التعاليم والأحكام

الشرعية، حيث لم يوجب الدراسة التخصصية في علوم الدين على جميع المكلفين لتعذر ذلك وتعسره، بل أوجب توجه فئة من كل مجتمع للتخصص في دراسة الدين. يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]. فوجود علماء الدين ضروري في الأمة انطلاقاً من ضرورة العلم بمبادئ الدين وأحكامه، والذي لا يتوفر إلا على أيدي المتخصصين فيه، وهم العلماء.

***

هناك مهام عديدة ترتبط بالدين، وتستلزم وجود فئة متفرغة للقيام بها. ومن أبرزها المهام التالية:

تبيين مفاهيم الدين وأحكامه في مختلف جوانب الحياة، وشرحها لأبناء المجتمع المسلم، بالتعليم المباشر، والإجابة عن أسئلة المستفسرين، وعبر شتى أساليب التبليغ والإعلام.

التذكير بالقيم الروحية والفضائل الأخلاقية، وتوجيه الناس للاستعداد لآخرتهم، عبر الوعظ والإرشاد الذي يثير وجدان الإنسان، ويوقظ ضميره، حتى لا تسيطر عليه الانشدادات المادية الجارفة، فيفقد توازنه ومشاعره الإنسانية.

القضاء بين الناس، وفصل الخصومات والنزاعات على أساس موازين الشرع.

---

(١) سورة التوبة، آية ١٢٢.

معالجة الإشكالات والشبهات الفكرية التي تثار من قبل المخالفين للدين، أو تطرحها تطورات الحياة.

الدعوة إلى الله تعالى والتبشير بالدين في سائر المجتمعات البشرية.

هذه المهام الدينية الخطيرة وأمثالها، لا يمكن أن تُترك على هامش حياة بعض الأفراد، ولأوقات فراغهم، بل لا بدّ من فئة متفرغة تتصدى لتحمّل مسؤوليتها ولإنجازها في واقع الأمة، وتكون متّصفة بالعلم والفقاهة في الدين.

***

الغرائز والشهوات الموجودة في أعماق نفس الإنسان، وإغراءات الحياة وعالم المادة، تدفع الإنسان للاستغراق في الاهتمامات المادية المصلحية، وتبعده عن الالتزام بالقيم والمبادئ السامية، فيحتاج المجتمع، إضافةً إلى التعليم والتذكير، إلى قدوات هادية من أبنائه، تشكل بسيرتها وسلوكها نموذجاً في الالتزام بالدين والتقيد بأحكامه، ما يخلق الحوافز والدوافع النبيلة في نفوس أبناء المجتمع نحو الالتزام بالتعاليم والقيم. وعلماء الدين هم المؤهلون ليكونوا قدوات هادية، ونماذج صالحة، تقود الناس إلى طريق الخير والصلاح. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1]. فعلماء الدين هم امتداد لحياة الأنبياء والأوصياء كما ورد في الحديث الشريف عنه ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

---

(١) سورة فاطر، آية ٢٨.

***

من هذه المنطلقات تأتي أهمية وجود علماء الدين، ولذلك أوجب الإسلام وجود هذه الفئة في الأمة، ومنحها مكانة عالية ودرجة رفيعة من التكريم والتبجيل، تمكنها من القيام بمهامها ومسؤولياتها الخطيرة، ودعا الأمة إلى الإلتفاف حول علماء الدين والأخذ بهديهم، والسير خلف قيادتهم لتطبيق قيم الدين وشريعته.

إن موقعية علماء الدين في الأمة تتأثر بمدى توجه الأمة لدينها، فكلما تصاعد التوجه الديني في أوساط المجتمع ارتفعت مكانة العلماء.

ونلاحظ الآن، مع تنامي الصحوة الإسلامية المباركة، كيف تعززت مكانة علماء الدين، وتبوّؤوا مواقع قيادية في العديد من المناطق والمجتمعات، واشتهرت شخصياتهم وظهرت أسماؤهم، وزاد الإقبال على الانضمام للحوزات والمدارس الدينية.

***

إن قيمة علماء الدين ومكانتهم منوطة بمدى تحملهم لمسؤولياتهم تجاه الدين والمجتمع، وقيامهم بالمهام الملقاة على عواتقهم. فهي ليست قيمة ذاتية ثابتة لأشخاصهم وإنما هي تابعة للدور الذي يؤدونه في التصدي للوظائف الشرعية، ومشروطة بالتزامهم بالمواصفات والسمات التي حددتها التعاليم الدينية.

وإذا ما تخلى عالم الدين عن القيام بمسؤولياته، أو قصّر في الالتزام

بالقيم والتكاليف الشرعية، فإنه لا يصبح ساقط الاعتبار فقط، بل يكون عنصرَ خطرٍ ومنبعَ شرٍّ وسوءٍ للإسلام والأمة.

فعالم الدين قد يكون سبباً لإعلاء كلمة الله تعالى، ودافعاً لتقدم الأمة، وذلك في حال تقمصه لقيم الدين وقيامه بالمهام والمسؤوليات، وقد يصبح حجر عثرة في طريق الإسلام والأمة، وأداة فساد وإفساد في حياة المجتمع، حينما ينحرف عن الطريق المستقيم.

***

ما هي وظيفة العالم الديني؟

وما هو دوره في الأمة؟

إن الوظيفة المعروفة، والدور التقليدي لعالم الدين في مجتمعاتنا، يتلخص في تعليم الأحكام الفقهية، التي غالباً ما تنحصر في مسائل العبادات، والأحوال الشخصية، وإجراء المراسيم الدينية كصلاة الجماعة، وعقود الزواج والطلاق، والصلاة على الميت وتلقينه.

ولكن هذا الدور الهامشي المحدود، الذي يضطلع به عالم الدين، لا يتناسب مع الصورة الخطيرة التي ترسمها النصوص الدينية من آيات وأحاديث لمقام عالم الدين ولموقعيته في الأمة.

فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست أوشك أن تضل الهداة»[1].

---

(١) زين الدين العاملي. منية المريد، ١٤٠٢هـ، (قم: مجمع الذخائر الإسلامية) صفحة ٢٥.

وعنه ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[١].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «الفقهاء أمناء الرسل»[٢].

وعن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض: والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء»[٣] رواه أبو داود والترمذي.

وقال رسول الله ﷺ: «العالم أمين الله سبحانه في الأرض»[٤].

وعن أمير المؤمنين علي بن أبى طالب عليه السلام: «العلماء حكام على الناس»[٥].

وعن الإمام الحسين بن علي عليه السلام: «مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه»[٦].

إلى عشرات النصوص والأحاديث التي تبين فضل العلماء، وتؤكد مكانتهم الخطيرة، وتدعو الأمة إلى الالتفاف حولهم، والسمع والطاعة

---

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٢، الطبعة الثانية ١٩٨٣م (بيروت: مؤسسة الوفاء) صفحة ٢٢.

(٢) المصدر السابق. ج ١ صفحة ٢١٦.

(٣) الحافظ المقدسي. فضائل الأعمال، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، (بيروت: مؤسسة الرسالة)صفحة ٥٦٥.

(٤) أبو حامد الغزالي. إحياء علوم الدين، ج١، ١٩٩٢م، (بيروت : دار الهادي) صفحة ٦ .

(٥) عبد الواحد الآمدي. غرر الحكم، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات) صفحة ٣٢.

(٦) محمد بن الحسن بن شعبة الحراني. تحف العقول، الطبعة الخامسة ١٩٧٤م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات) صفحة ١٧٢.

لهم، وإن الراد على مستكمل الشرائط منهم كالراد على الله، كما هو نص مقبولة عمر بن حنظلة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً، فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه فإنما استخف بحكم الله وعلينا ردّ، والراد علينا الراد على الله، وهو على حدّ الشرك بالله»[1].

وواضح أن الدور الهامشي المحدود لعالم الدين الإسلامي لا يستدعى كل هذا التأكيد والتركيز لمكانة العالم وفضله الوارد في تلك النصوص الدينية.

فما هو إذن دور عالم الدين؟

وما هي وظيفته الحقيقية؟

بدراسة واعية للمفاهيم والنصوص الدينية في هذا المجال يمكننا القول بجزم ويقين أن دور عالم الدين هو دور القيادة للأمة، في مختلف مجالات الحياة، وأن وظيفته هي رعاية شؤون المجتمع في جميع الجوانب.. ذلك أن الإسلام منهج كامل شامل لتنظيم حياة الإنسان، والأمة مطالبة بتنفيذ برامج الدين وتطبيقها، فلا بدّ أن تتوفر في قيادة الأمة صفتا العلم التفصيلي بمبادئ الدين وأحكامه، والالتزام الواعي بها.

---

(١) محمد بن يعقوب الكليني. الأصول من الكافي، ج ١، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ (طهران: دار الكتب الإسلامية) صفحة ٦٧.

ومن هذا المنطلق فإن هناك مصاديق وتجليات للدور القيادي لعالم الدين، وسنعرض في هذا البحث لواحدة من أهم تلك المصاديق والتجليات، وهي دور علماء الدين في قيادة الجانب الفكري والثقافي للأمة.

التوجيه الفكري والحصانة الثقافية

كيف تنتشر معارف الإسلام، ويطلع الناس على أحكامه وتعاليمه، إذا لم يقم العلماء الفقهاء بمسؤولية التوعية والإرشاد والتعليم؟ لقد كان رسول الله ﷺ يتحمل هذه المسؤولية الخطيرة لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ..﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٢].

وبعد رسول الله ﷺ كان الأئمة الهداة من أهل بيته عليهم السلام والخيرة الطيبة من صحابته رضي الله عنهم يضطلعون بهذا الدور الخطير.

أما في هذا العصر فإن المسؤولية تقع على عاتق الفقهاء الأعلام ورثة الأنبياء، وأمناء الرسل، ونوّاب الأئمة.

بالطبع فإن القيام بدور التوجيه الفكري لأمة يستلزم الرصد والمواجهة، للأفكار والتيارات المضادة والمنحرفة التي قد تغزو الأمة من الخارج، أو التي تنشأ في أوساط المجتمع نتيجة جهل أو سوء فهم

(١) سورة الجمعة، آية :٢.
(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

أو نزعات مغرضة.

أما تحديد دور الفقهاء المراجع باستنباط المسائل الفقهية المحدودة، دون أن يكون لهم شأن أو اهتمام بتبيين مفاهيم القرآن، وعقائد الإسلام، وتعاليمه ومناهجه لمختلف جوانب الحياة، ودون أن يحصنوا جماهير الأمة عن تأثيرات الكفر والإلحاد والجهل والانحراف العقائدي والثقافي... أما هذا الفهم الضيق لدور الفقهاء المواجع على الصعيد العلمي المعرفي، فهو ناشئ عن قصور في فهم أبعاد الرسالة الإلهية، وتأثر بحالة التخلف والانحطاط التي عاشتها الأمة في هذه العصور.

ولنتأمل الآن بعض الآيات والروايات التي تنص وتؤكد هذه المسؤولية الخطيرة الملقاة على كاهل علماء الدين وفقهائه:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٩.

فالآيات الكريمة تعتبر تقاعس العلماء عن تبيان ما أنزل الله من البينات والهدى كتماناً لرسالة الله، ونبذاً وإعراضاً عن دينه، وتتوعد أولئك المتقاعسين بأشد العذاب والنكال.

إن هدف العلماء من طلبهم للعلم وتعمقهم فيه، إنما هو إرشاد مجتمعاتهم، وصيانة مسيرتها من الخطأ والانحراف يقول تعالى: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[١].

أما الأحاديث والروايات فتتناول هذا الموضوع بتأكيد ووضوح، فعن النبي ﷺ: «من كتم علماً نافعا ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[٢].

ونقل الحديث أبو حامد الغزالي بالنص التالي: قال ﷺ: «من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[٣].

وقال ﷺ: «ما آتى الله عالماً علماً إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه»[٤].

وعن الإمام محمد بن علي الجـواد عليه السلام: «والعلماء في أنفسهم خانة أن كتموا النصيحة إن رأوا تائهاً لا يهدونه، أو ميتاً لا يحيونه فبئس ما يصنعون»[٥].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٣.

(٢) محمد باقر المجلسي . بحار الأنوار، ج٣ صفحة ٧٨.

(٣) أبو حامد الغزالي. إحياء علوم الدين ، ج١ صفحة ١٠.

(٤) المصدر السابق صفحة ٦.

(٥) محمد بن يعقوب الكليني. الأصول من الكافي ، ج ٨ صفحة ٥٤.

وإذا ما عشش الجهل في أوساط الأمة، فإن العلماء يتحملون مسؤولية ذلك، لأن تعليم الناس واجب ديني ملقى على عاتق العلماء، قبل أن يكون التعلم فريضة على الجهّال، يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا»[١].

وبلفظ آخر يرويه حفيده الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «قرأت في كتاب علي عليه السلام: إن الله لم يأخذ على الجهال عهداً لطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهداً ببذل العلم للجهّال لأن العلم كان قبل الجهل»[٢].

أما وظيفة العالم تجاه الانحرافات الفكرية فبينها حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»[٣].

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله: «يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الضالين، وانتحال الجاهلين، كما ينفي الكير خبث الحديد»[٤].

ولكي ندرك مدى أهمية وخطورة تصمدي العالم للمقاومة والصراع

---

(١) الشريف الرضي. نهج البلاغة ، قصار الحكم رقم ٤٧٨.

(٢) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج ٦، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، (قم: مكتب الإعلام الإسلامي) صفحة ٤٧٢.

(٣) محمد بن يعقوب الكليني. الأصول من الكافي، ج ١ صفحة ٥٤.

(٤) محمدرضا الحكيمي، محمد الحكيمي، علي الحكيمي. الحياة، ج٢، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ، (بيروت: الدار الإسلامية) صفحة ٢٩١.

الفكري الثقافي، لتثبيت مفاهيم الدين ومبادئه، وللوقوف أمام العدوان والانحراف الفكري.. لكي ندرك ذلك علينا التأمل في الأحاديث التي تؤكد أفضلية مداد العلماء (الحبر) الذي تكتب به أقلامهم على دماء الشهداء الذين يسقطون في معارك الجهاد دفاعاً عن الدين والأمة.

فهذه الأحاديث تلفت أنظارنا إلى أن هناك نوعين من العدوان ومن الفتوحات، عدوان عسكري، وعدوان فكري، وفتح عسكري، وفتح فكري. وكما أن على الأمة أن، تواجه العدوان العسكري، تفكر في الفتوحات العسكرية، لشق الطريق أمام الرسالة، فكذلك عليها مواجهة العدوان الفكري، وإيصال الهداية إلى سائر المجتمعات عبر القلم والبيان، وإذا كان الجنود يبذلون دماءهم في ساحة المعركة العسكرية، فإن العلماء هم جنود معارك الفكر والثقافة، وأقلامهم سلاحهم المشرع، ومدادها يوازي دماء الشهداء بل يرجح عليه.

وأي هزيمة عسكرية ستصيب الأمة لو بخل الجندي ببذل دمه؟

لكنها هزيمة تهون أمام الانكسار والانهزام الفكري والثقافي، لو لم يبذل العلماء الجهود، ويتحملون المسؤوليات في التوجيه والتثقيف، ومقاومة التيارات الفاسدة والمنحرفة.

لذلك يقول رسول الله ﷺ: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»[1].

إن من أهم امتيازات عالم الدين، ودواعي تفضيله على الآخرين،

---

(١) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج ٦ صفحة ٤٥٧.

هو تصديه للأفكار الشيطانية المنحرفة، كما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد سبعين درجة.. وذلك أن الشيطان يدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهي عنها والعابد مقبل على عبادته لا يتوجه لها ولا يعرفها»(١).

وعنه ﷺ: «زكاة العلم تعليمه من لا يعلمه»(٢).

وإن قيام العلماء بوظيفتهم في تبيين معالم الدين وأصول الشريعة، وفضح شبهات المناوئين هو سبب بقاء الدين وتمسك المؤمنين، وإلا فإن مؤامرات وأضاليل الكافرين والمنحرفين قد تخمد أنوار الهدى، وتشيع أجواء الارتداد والابتعاد عن الدين، يقول الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام: «لولا من يبقى بعد غيبة قائمنا من العلماء الداعين إليه، والدالين عليه، والذابين عن دينه، بحجيج الله والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك إبليس ومردته، ومن فخاخ النواصب لما بقي أحد إلا ارتد عن دين الله..»(٣).

من أجل أن يتمكن العلماء من أداء هذا الواجب الخطير في هذا العصر لا بدّ من التوجه لمسألة التخطيط والرصد الثقافي. فالغالب على الإنتاج الفكري الديني هو فردية الإنتاج حيث تقل عندنا المراكز والمؤسسات الجماعية في الحقل الفكري، ويندفع الموجهون والمرشدون الدينيون في ممارساتهم التوجيهية بشكل عفوي استرسالي، يتأثر البعض

---

(١) المجلسي، محمد باقر. بحار الأنوار، ج ٢ صفحة ٢٤.

(٢) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج ٦ صفحة ٤٦٩.

(٣) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج ٢ صفحة ٦.

منهم بظروف محدودة، وحسب اهتماماته وملاحظاته الشخصية، دون أن يكون هنالك في الغالب خطة منبثقة عن دراسة لواقع المجتمع، وتشخيص لأمراضه واحتياجاته الفكرية.. وأيضاً دون متابعة ورصد للتطورات الفكرية على مستوى العالم. أو التيارات الناشئة داخل المجتمع والوافدة إليه.

فقد تجد عالماً متحمسا لطرح فكرة ما أو الدفاع عنها، بينما لا يكون لتلك الفكرة أيّ أهمية أو تأثير في واقع الأمة المعيش.

وقد تسمع خطيباً يثير موضوعاً لا يعالج فيه قضية من قضايا العقيدة والمجتمع، بل يكرس حالة القشرية، والاهتمامات الثانوية الزائفة!

إننا بحاجة ماسة إلى أن تولي المرجعية الدينية والقيادات الإسلامية، اهتماماً كبيراً تجاه المسألة الفكرية الثقافية، بأن تكون هناك أجهزة ولجان ومؤسسات تتابع تطورات المعرفة في العالم، وترصد المؤامرات التي تستهدف فكرنا وعقيدتنا، وتخطط لتوجيه المؤلفين والخطباء والمبلغين.

بالإضافة إلى ذلك لابدّ من تطوير وسائل التوجيه كمًّا وكيفاً، والاستفادة من الأجهزة الحديثة والأساليب الفنية.

نحو فاعلية ثقافية

لكي يتحمل علماء الدين مسؤوليتهم في التوجيه الفكري لأبناء الأمة، وفي الدفاع عن قيم الدين ومفاهيمه، على مستوى العالم، لا بدّ أن يدركوا سعة الرقعة التي يجب أن يشملها نشاطهم، فالمسلمون

يبلغ الآن عددهم (بليوناً و٢٣٤ مليون) نسمة، حسبما أعلنته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) في إحصائية لعام ١٩٨٩م[١].

وهم متوزعون في مختلف قارات العالم وإن كانوا يتركزون أكثر في قارتي آسيا وأفريقيا، كما تتعدد لغاتهم، واحتياجاتهم الفكرية والثقافية، نظراً لاختلاف ظروفهم وأوضاعهم.

من جانب آخر لابدّ من العمل لإيصال صوت الإسلام ورسالته لغير المسلمين وهم أربعة أضعاف عدد المسلمين.

فكم من الجهد والنشاط يجب أن يبذله العلماء حتى يؤدوا ولو جزءاً من وظيفتهم الفكرية الثقافية؟ ولو ألقينا نظرة على النشاط التبشيري الذي يقوم به علماء الديانة المسيحية عبر مؤسساتهم، لنشر أفكارهم ومعتقداتهم على مستوى العالم، لأدركنا خطورة التحدي الذي يواجهه حملة رسالة الإسلام.

وأمامي الآن بعض الأرقام والإحصائيات التي نقلها الداعية الإسلامي المعروف الشيخ أحمد حسين ديدات (من جنوب أفريقيا) أقتطع منها ما يلي:

هناك مجلة مسيحية تبشيرية اسمها (الثمرة الجلية) *The Plain Fruit* تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية، وتوزع منها ثمانية ملايين وثمانمائة ألف نسخة شهرياً، وهي مجانية، ولا تصدر عن دائرة حكومية،

---

(١) المسلمون. جريدة اسبوعية بتاريخ ١٣ رجب ١٤١٢هـ.

بل إن ناشرها هو شخص واحد، ولديه محطات تلفاز واستوديوهات فيديو.

وتوجد في الولايات المتحدة الأمريكية جماعة يطلقون على أنفسهم (شهوديهوه) يبلغ عدد أعضائهم في العالم حوالي مليوني عضو. وإذا نشروا كتاباً يطبعون منه أربعة وثمانين مليون نسخة، ويترجمونه إلى نحو خمس وتسعين لغة!

وإحدى مجلاتهم تطبع وتوزع منها ثمانية ملايين وتسعمائة ألف نسخة وتطبع في أربع وخمسين لغة!

ومجلة أخرى تصدر عن نفس الجماعة اسمها (برج المراقبة) يطبعون منها عشرة ملايين ومائتي ألف نسخة، ويصدرونها في مائة واثنتين من لغات العالم، وكلها توزع مجاناً أو بثمن زهيد!

والمسيحيون يوزعون في جنوب أفريقيا وحدها سنوياً ثمانمائة ألف نسخة من الإنجيل مجاناً.

وفي أفريقيا قاموا بترجمة الإنجيل إلى مائة وسبع لغات أفريقية وتوزع مجاناً!

وهناك رجل أعمال هولندي واحد قام بطبع (١٠٧) مليون نسخة من الإنجيل لتوزع مجاناً!

ويوجد في العالم الآن (٧٠) ألف مبعوث تنصيري نسبة الأمريكيين بينهم تصل إلى ٦٠٪ أي (٤٢) ألف مبعوث أمريكي تنصيري، ومن هذا العدد يوجد في أفريقيا وحدها (٣٥) ألفاً. وفي إندونيسيا ستة

آلاف، وقد بلغ عدد المسيحيين في إندونيسيا الإسلامية خمسة عشر مليوناً لحد الآن، ويخططون لتحويلها مسيحية بالكامل نهاية القرن العشرين[١].

ترى هل يمكن المقارنة بين هذه الأرقام ومستوى العمل التثقيفي من قبل الجهات الإسلامية الدينية؟

أليس نشاط الآخرين وتحركهم حجة علينا أمام الناس وأمام التاريخ وأمام الله سبحانه وتعالى؟

وعالم اليوم هو عالم المعرفة والفكر، حيث تساقطت الحواجز بين البلدان والشعوب، وأصبح العالم كله قرية واحدة، وتطورت وسائل التثقيف والإعلام الفكري، وأصبحنا نعيش عصر الثورة المعلوماتية..

فكيف يستطيع علماء الدين مواجهة هذا التحدي الكبير؟ والقيام بمسؤولياتهم وواجبهم الشرعي في تبيين الدين وإبلاغ رسالته للعالم؟

ولنتحدث الآن على الصعيد الفردي، بمعنى مسؤولية كل عالم دين شخصياً في تكثيف نشاطه الثقافي، وزيادة مستوى فاعليته وإنتاجه..

إنه لو شمر كل عالم دين عن ساعديه، وبذل ما في وسعه وجهده للتدريس والتوجيه والخطابة والكتابة، وإنشاء المؤسسات العلمية والفكرية، لاستطعنا التقدم إلى مستوى أفضل مما نحن عليه الآن في هذا المجال.

لكن الكثير من علماء الدين لا ينمون في أنفسهم كفاءة العطاء

(١) الفيصل. مجلة سعودية العدد ١٣٥، رمضان ١٤٠٨هـ.

والإنتاج الثقافي فلا يمارسون الخطابة أو الكتابة مثلاً.. وكم من عالم فاضل مات دون أن يترك خلفه حتى ورقة علم واحدة ينتفع بها؟

مع أن الحديث الشريف برواية أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ يقول: «المؤمن إذا مات وترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة يوم القيامة ستراً فيما بينه وبين النار»[(١)].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «من كتب عنى علماً أو حديثاً لم يزل يكتب له الأجر ما بقي ذلك العلم والحديث»[(٢)].

لقد عاصرت في سنّ مبكرة من حياتي عالما تقياً في بلادي القطيف، هو المرحوم الشيخ فرج العمران (١٣٢١هـ ـ ١٣٩٨هـ) وكنت أسمعه يوجه اللوم والعتاب على أيّ عالم تنقضي حياته دون أن يترك أثراً أو مؤلفاً!! حتى إنه كتب ترجمة لأحد علماء بلادنا الماضين هو المجتهد المرحوم الشيخ محمد النمر (١٢٧٧هـ ـ ١٣٤٨هـ) وكان كفيف البصر، وضمّن الترجمة عتابه على الشيخ النمر لأنه لم يخلف أثراً علمياً، مع أنه كان مكفوفاً وكانت حياته عامرة بالنشاط الاجتماعي والسياسي. وقال الشيخ فرج ما نصمه:

(مما يؤسفني جداً، ويجري دموعي الحارة، حتى تكاد نفسي تطير شعاعاً من الوجد أن لا أرى لهذا العلامة العلم مصنفاً في العلم ولو مختصراً، ككثير من علمائنا الأعلام من أهالي القطيف، مع أن مثل

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج١ صفحة ١٩٨.

(٢) علي المتقي بن حسام الدين الهندي. كنز العمال، الطبعة الخامسة ١٤٠٣هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة) خبر رقم ٢٨٩٥١.

صاحب الترجمة قد تسنت له الأمور، وساعده المقدور، مدة من الزمن، وطائفة من الوقت، ليست باليسيرة، مع كثرة التلاميذ، وملازمتهم له ليلاً ونهاراً، وتصديهم للقيام بجميع شؤونه من كتابة وقراءة ومطالعة وتصفح كتب، وغير ذلك من مهماته ولوازمه، كما أنه كان باذلاً لهم الأموال، معتنياً بشؤونهم على كل حال، فإنا لله وإنا إليه راجعون)[١].

والبعض من العلماء يبخل على الناس بالتوجيه والإفادة، حينما يصاحبونه أو يجالسونه، إلا إذا بادروه بالسؤال فإنه يجد نفسه مضطرًّا لإجابتهم. بينما نقرأ في سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أهل بيته وأصحابه الأخيار كيف أنهم كانوا يغتنمون الفرص، ويبادرون الناس بالحديث، لإرشادهم وتوعيتهم بأمور دنياهم ودينهم..

ومن المؤسف أن تشيع في الأوساط العلمية الدينية قيم وتقاليد خاطئة تثبط العزائم وتعرقل طريق الإنتاج الفكري والنشاط التبليغي في المجتمع.

فقد كانت الخطابة والكتابة في بعض حوزاتنا العلمية، وكأنهما لا يليقان بشأن العلماء، وليست من أولويات اهتماماتهم في مسيرهم العلمي الدراسي.. وقد سمعت من بعض الثقات أن العلامة المعاصر الشيخ باقر شريف القرشي، وهو باحث ومؤلف قدير، أثرى المكتبة بدراسته القيمة. هذا العالم الباحث حينما طبع أوائل كتبه قامت بعض

---

(١) الشيخ فرج العمران. الأزهار الأرجية، ج ٣، ١٣٨٣هـ، (العراق: مطبعة النجف) صفحة ٨٢.

الجهات المتصدية لشؤون الطلاب في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، بقطع راتبه ومكافئته الشهرية، بحجة أنه منشغل بالكتابة والتأليف عن الدرس والتدريس !!

ويتحدث الشهيد السيد مهدي الحكيم ﵀ في مذكراته التي طبعت بعد وفاته: كيف أنه لما بدأ يلقي المحاضرات التوجيهية تعرض لضغوط كثيرة وذهب البعض من علماء الحوزة إلى أبيه الإمام الحكيم ﵀ ليطلبوا منه أن ينصح ابنه بالإقلاع عن ممارسة الخطابة فهي لا تليق بمقامه !!

وكأن هؤلاء العلماء لا يعرفون قيمة التوجيه وتأثير الخطابة في الجمهور، وأنها وسيلة مهمة من وسائل الهداية، وسلاح رئيس في مواجهة الباطل، وينقل المؤرخون عن الخليفة العباسي هارون الرشيد انزعاجه من أحاديث هشام بن الحكم ومناظراته بين الناس حتى قال هارون: «إن لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف»[1].

نعم. إن البعض من هؤلاء يشكك في جدوائية النشاط الثقافي، فماذا تجدي الخطابات؟ وماذا تنفع الكتب؟ وقد اتسع الخرق على الراقع وظهر الفساد في البر والبحر ! وهل استفاد الناس من الكتب الموجودة حتى نكتب لهم غيرها؟ وما أشبه هذا الكلام من التبريرات والأفكار السلبية التافهة..

---

(١) أسد حيدر . الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ٣، الطبعة الثانية ١٩٧١م، (بيروت: دار الكتاب العربي) صفحة ٨١.

وقسم آخر يعتذر بالمشاكل والظروف السياسية أو الاجتماعية، لإحجامه عن ممارسة دوره التوجيهي التثقيفي في الأمة. ولو تصفحنا حياة العلماء الذين أثروا معارف الأمة بكتاباتهم ومؤلفاتهم، لما وجدنا أنهم كانوا يعيشون ظروفا مهيأة منسجمة، خالية من المشاكل والمصاعب، بل أن أكثرهم كان يقوم بمسؤوليته ووظيفته الدينية في الكتابة والتأليف، متحدياً ما يحيط به من عقبات وصعوبات.

ونشير فيما يلي إلى بعض النماذج والمواقف:

العلامة شمس الأئمة السرخسي من فقهاء الحنفية أملى كتابه (المبسوط في الفقه) المطبوع في ثلاثين مجلداً، أملاه وهو في السجن (باوز جند) إذ كان محبوساً في الجب بسبب كلمة نصح بها الخاقان الحاكم آنذاك. وكان يملي من خاطره وهو في الجب وتلاميذه في أعلى الجب يكتبون عنه ! وقال عند فراغه من شرح العبادات: «وهذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات، أملاه المحبوس عن الجمع والجماعات..» وقال في آخر شرح الإقرار: «انتهى شرح الإقرار المشتمل من المعاني على ما هو من الأسرار، بإملاء المحبوس في مجلس الأشرار..» وله كتاب في أصول الفقه، وشرح السير الكبير أملاه وهو في الجب، ولما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرج[1].

العلامة الحلي الحسن بن يوسف بن مطهر (٦٤٨هـ ـ ٧٢٦هـ)

(١) عبد العزيز البدري. الإسلام بين العلماء والحكام، ١٩٦٦م، (المدينة المنورة: منشورات المكتبة العلمية) صفحة ٢١٩.

صاحب المصنفات والمؤلفات الكثيرة المشهورة، فقد نقل بعض الأفاضل أنه وجد بخطه خمسمائة مجلداً من مصنفاته غير ما هو بخط غيره من مصنفاته[١].

ونقل أن تصانيفه وزعت على أيام عمره فأصبح نصيب كل يوم منها كراساً مع ما كان عليه من الاشتغال. وعن ابن خاتون في شرح الأربعين: أنه وقع نصيب كل يوم من حياته ألف سطر[٢].

العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (١٠٣٧هـ ـ ١١١١هـ) يعتبر قدوة ونموذجاً في هذا الجانب، فقد أحصي له من المؤلفات أكثر من ستين كتاباً باللغة العربية والفارسية، وأحد تلك المؤلفات الموسوعة الشهيرة (بحار الأنوار) طبعت في (١١٠) مجلدات، ومؤلف آخر هو (مرآة العقول) طبع في أكثر من عشرين مجلداً..

ولم يكن الشيخ المجلسى متفرغاً للتأليف فقط، بل كان يمارس التدريس في مدرسته التي كانت تحتضن زهاء ألف طالب، ويقيم الجمعة والجماعة مع الوعظ والإرشاد في مسجده، ويكتب أجوبة الاستفتاءات، ويستقبل المراجعين، وكان شيخ الإسلام في عاصمة الدولة الصفوية حيث كان السلطان حسين الصفوي يعتمد على رأيه ومشورته ويوكل إليه العديد من المهام[٣]..

---

(١) فخر الدين الطريحي. مجمع البحرين، ج ٦، الطبعة الثانية ١٩٨٣م،(بيروت: مؤسسة الوفاء) صفحة ١٢٣.

(٢): محمد باقر الخونساري. روضات الجنات، ج ٣ صفحة ٢٧٦.

(٣) مرتضى العسكري. مقدمة مرآة العقول، ج ٢، ١٤٠٤هـ، (طهران: دار الكتب العلمية) صفحة ٥١٦.

العالم الباحث محمد عزة دروزة يؤلف كتابه الرائع (عصر النبي وبيئته قبل البعثة) وهو في سجن الاحتلال الفرنسي لحكم المحكمة العسكرية الفرنسية في دمشق بسبب قضية فلسطين من تاريخ ٥ حزيران ١٩٣٩م إلى ٣ تشرين الثاني ١٩٤٠م وقد طبع الكتاب في ٨٥٠ صفحة..

المرجع الديني المعاصر السيد محمد الشيرازي تجاوزت مؤلفاته لحد الآن (٣٠٠) كتاباً من بينها موسوعته الفقهية الاستدلالية (الفقه) طبع منها (١١٥) مجلداً، وتفسيره للقرآن (تقريب القرآن إلى الأذهان) طبع في عشر مجلدات، وشرحه للمكاسب (١٦) مجلداً، وشرحه لكفاية الأصول (٥) مجلدات، إلى عشرات الكتب في مختلف الحقول والمجالات.. مع مواظبته على التدريس يومياً، واستقباله الزائرين والسائلين والمراجعين، ومواجهته المشاكل السياسية، وقيامه بمهامه القيادية المرجعية..

إن هذه النماذج وأمثالها حجة على كل عالم لكي يتصدى لمسؤوليته، ويقوم بواجبه في نشر ثقافة الإسلام، وتوضيح مفاهيمه، ولولا هذه النماذج لما بقي هذا الوجود الإسلامي، ولو تظافرت معهم الجهود وكثر أمثالهم لكان الإسلام الآن أقوى موقعاً وتأثيراً..

العمل الجمعي والمؤسساتي

غالباً ما تكون المؤسسات الدينية الثقافية ضمن الإطار والإشراف الحكومي الرسمي، مما يحد من حركتها وحريتها، ويجعل مواقفها وأنشطتها تابعة لمسار الحكم ومواقفه السياسية..

أما العلماء المستقلون في حركتهم ونشاطهم عن وضع السلطة والحكم، فإنهم عادة ما يمارسون أدوارهم ومهامهم كأفراد، وليس كتجمعات ومؤسسات.

والسبب الرئيس في هذا المنحى الفردي هو الحذر من السلطات، التي تنظر إلى أيّ نشاط جمعي خارج إطارها بعين الريبة والشك، وتمنعه أو تعرقل طريقه.

لكن هذا السبب لا يعني انعدام فرص العمل الجمعي بالكامل بين علماء الدين، فهناك هامش من الحرية والمجال، تتفاوت مساحته بين بلد وآخر، كما يمكنهم فرض الأمر الواقع في بعض الأحيان، أو الاتفاق على درجة من التشاور والتنسيق لا يثير السلطة.

بيد أن هناك مشكلة أخرى تكمن في ضعف الاندفاع والاهتمام بالعمل الجمعي والمؤسساتى، وهى مشكلة عامة في المجتمعات المتخلفة، حيث تسود الروح الأنانية والفردية، وينخفض الوعي بأهمية التعاون، وتنعدم الأخلاقيات التي يستلزمها العمل الجمعي.

وكان يفترض في علماء الدين أن يتساموا على واقع التخلف، ويجسدوا بسلوكهم قيم الوحدة والتعاون والانسجام فيما بينهم أولاً، ومن ثم يعكسون هذه القيم والسلوك في سائر نواحي حياة المجتمع بتوجيههم وإرشادهم.

ويهمنا في هذا البحث الحديث عن التعاون بين العلماء على الصعيد الثقافي..

فهذا العصر عصر التكتلات والتجمعات والمؤسسات، والأخطار والتحديات التي نواجهها فكرياً وثقافياً تتجلى في تيارات عالمية، ذات مؤسسات تتصف بأعلى درجات النظام والبرمجة والتخطيط.

والفرد مهما بلغ في علمه، ومهما أوتى من كفاءات، وتوفرت له من إمكانات، يبقى محدود القدرة، وتعاونه مع الآخرين يجعل رأيه أصوب، وعلمه أقوى وأكمل.

وفي المجال الثقافي فإن تبادل الرأي، وتداول المعرفة، وتلاقح الفكر، لا يكون إلا عبر تلاقي العلماء وتشاورهم، وتعاونهم في رسم الخطط وبلورة المفاهيم ووضع البرامج، وتقويم الموضوعات.

وإذا كانت كل مجالات الحياة في حاجة إلى تبادل الرأي، فإن مجال الثقافة هو الأحرى بتكاتف العقول وتداول الآراء.

خاصة وأن تراثنا الديني أحاطت به ظروف وملابسات، جعلت استكشاف القيم واستنباط الأحكام والأنظمة، من هذا التراث ليست مهمة سهلة، وتداول الرأي بين العلماء، والتعاون في البحث والتحقيق والمناقشة يساعدهم كثيراً في إنجاح مهمتهم الخطيرة، بالوصول إلى حقائق الدين وثوابت أحكامه.

والتطورات والتغيرات المعيشة على مستوى الأمة والعالم، التي لم تكن حادثة في عصر التشريع تحتاج إلى دراسة وبحث عميق لتحديد رؤية الدين إليها، وموقفه منها، وذلك لا يتم بشكل أفضل إلا عبر عمل علمي جمعي، ومؤسسات فكرية قائمة على التخطيط والتنظيم.

إننا نجد العلماء المتخصصين في سائر مجالات العلم يتداولون الرأي، ويعقدون المؤتمرات، لمعالجة ما يستعصي عليهم من قضايا تخصصهم، كعلماء الطب والفلك والاقتصاد... بل حتى أصحاب الفنون والهوايات المختلفة لهم تجمعاتهم ولقاءاتهم ومؤتمراتهم.. فلماذا لا نجد لدى علماء الدين توجهاً واهتماماً من هذا القبيل؟!

وقد طرح الشهيد الشيخ مرتضى مطهري في إيران مثل هذه الفكرة قبل سنوات عدة تحت عنوان (المجلس الفقهي) ومما جاء في اقتراحه قوله:

إنه بعد أن ظهرت الفروع التخصصية في جميع علوم الدنيا، فكانت سبباً في تقدم العلوم تقدماً محيراً للعقول، ظهر أمر آخر إلى حيز الوجود كان أيضاً عاملاً مهمًّا من عوامل التقدم والتطور، ألا وهو التعاون الفكري بين العلماء من الطراز الأول، والمنظرين في كل فرع في عالم اليوم لم يعد لفكرة الفرد والتفكير الفردي قيمة تذكر والعمل الفردي لا يوصل إلى نتيجة.. إن علماء كل فرع من فروع العلم مشغولون دائماً بتبادل النظر مع بعضهم البعض، يضعون حاصل فكرهم، وعصارة عقولهم تحت تصرف العلماء الآخرين. بل أن علماء قارة ما يتبادلون مع علماء قارة أخرى ويتعاونون معهم، فيكون من أثر هذا التعاون وتبادل المعلومات والتعرف على وجهات نظر الآخرين، انه إذا كانت هناك نظرية نافعة وصحيحة أمكن نشرها بسرعة أكثر لتأخذ مكانها، وإذا كانت النظرية باطلة أمكن إعلان بطلانها سريعاً، واطراحها بعيداً،

دون أن يضطر طلاب العلم إلى التمسك بها حتى يتبين لهم بطلانها بعد سنين.

إنه مما يؤسف له أننا لا نرى بيننا أيّ تقسيم للعلم والتخصص، ولا أيّ تعاون وتبادل نظر. ومن البديهي أننا بهذا الوضع لا يمكن أن نتوقع تقدماً وحلًّا للمشاكل. على الرغم من أن أهمية التشاور العلمي وتبادل النظر واضحة، ولا تتطلب البرهنة عليها، ولكن لكي يتبين أن الإسلام نفسه يحتوي على أمثال هذه التطلعات والمبادئ التقدمية نورد آية من القرآن وقطعة من نهج البلاغة:

جاء في القرآن في سورة الشورى (الآية٣٨):

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

هذا هو الوصف الذي يصف به الله المؤمنين وأتباع الإسلام، إذن فالإسلام يرى أن التعاون الفكري وتبادل النظر من المبادئ الأصيلة في حياة المؤمنين.

وفي نهج البلاغة: «واعلموا إن عباد الله المستحفظين علمه، يصونون مصونه، ويفجرون عيونه، يتواصلون بالولاية، ويتلاقون بالمحبة، ويتساقون بكأس روية ويصدرون بريّة» أي اعلموا أن الذين عهد الله إليهم بعلمه يحفظونه، ويجرون ينابيعه، أي أنهم يفتحون أبواب العلم بوجوه الناس، يرتبط بعضهم ببعض بروابط المحبة والتعاطف، يتلاقون بالمحبة والبشاشة، ويرتوون من كأس العلم والفكر، يتعاطون

كؤوس العلم والمعرفة التي يدخرها كلٌّ منهم، وتكون النتيجة أن يرتوي الجميع ريًّا.

فلو أنشئ مجمع علمي للفقهاء، وتحقق مبدأ تبادل النظر، فإن ذلك فضلاً عن أنه يؤدي إلى تكامل الفقه وتطويره، فإنه يزيل كثيراً من الاختلاف في الفتاوى.

ليس هناك طريق آخر، لأننا إذا كنا ندعى أن فقهنا من العلوم الحقة في العالم، فلا بدّ من اتباع الأساليب التي تتبع في سائر العلوم الأخرى، وإذا لم نفعل ذلك فمعنى ذلك أن الفقه خارج عن صف العلوم[١].

ثم تقويم الأوضاع وتشخيص الموضوعات هو الآخر يحتاج إلى تضافر الآراء والأفكار من قبل العلماء قبل أخذ موقف متسرع من أيّ نظرية أو فكرة أو موضوع.

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح على الواعين والمخلصين: لماذا تنعدم مبادلات الحوار والتلاقي والتنسيق بين علماء الدين؟

والمفترض أنهم كعلماء مطلعون على تأكيدات الإسلام على التشاور والتعاون، كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[٣]. وقوله تعالى:﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[٤].

---

(١) الشيخ مرتضى المطهري. الاجتهاد في الإسلام، (طهران: مؤسسة البعثة) صفحة ٣١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) سورة الشورى، آية: ٣٨.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

وما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من رجل يشاور أحداً إلا هدي إلى الرشد»[١].

وقال النبي ﷺ فيما ذكره الماوردي: «ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم»[٢].

وقال أبو هريرة فيما رواه الترمذي: «لم يكن أحد أكثر مشاورة من رسول الله ﷺ»[٣].

وقول الإمام علي عليه السلام: «من شاور ذوي العقول استضاء بأنوار العقول»[٤] وَ «الاستشارة عين الهداية»[٥].

ويفترض أيضاً في علماء الدين أن يكونوا متحلين بمكارم الأخلاق، التي تبعدهم عن حالات الحقد والحسد والبغض والأنانية والمزاجية..

كل ذلك صحيح، لكن لا يصح أن ننسى أن العلماء جزء من المجتمع، وما دام المجتمع كله يعيش حالة التخلف، ولا تسوده أجواء الحرية والتعددية والتعاون والتشاور، فإن العلماء قد شملهم هذا الداء الخطير.

ثم لا تخلو أوساط العلماء من عناصر تفتقد الالتزام بالضوابط والأخلاق الكاملة المطلوبة، فتؤدي هذه العناصر دوراً سلبياً تجاه أيّ مسعى تعاوني.

---

(١) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج ٥ صفحة ٢١٠.

(٢) وهبة الزحيلي. التفسير المنير، ج ٤، ١٩٩١م، (دمشق: دار الفكر) صفحة ١٤٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج ٥ صفحة ٢١١.

(٥) المصدر السابق.

وهناك بعض العلماء يفرطون في الحذر والخوف من رد فعل السلطات الحاكمة فيتحفظون على أيّ عمل جمعي.

إضافة إلى ضعف الوعي الاجتماعي، والاستعداد لتحمل المسؤولية، ورفض أيّ فكرة للتطوير والتغيير في الوضع الديني السائد عند البعض من العلماء، مما يجعل هذا البعض معارضاً لطروحات العمل الجمعي والمؤسساتي، وقد يعرقل أيّ محاولة في هذا الاتجاه.. وكأمثلة على ذلك نشير إلى ما ذكره الأديب الباحث علي الخاقاني في موسوعته (شعراء الغري) من فشل العديد من المحاولات الإصلاحية، والمشاريع التعاونية في أوساط الحوزة العلمية في النجف الأشرف آنذاك[١].

لكننا نراهن الآن على التطورات الإيجابية في الوسط الديني، مع إشراقة الصحوة الإسلامية، وتوفر أجواء الوعي والانفتاح، مما يجعلنا نأمل في انطلاق مبادرات جديدة في هذا المجال، عل مستوى الأمة جمعاء، وعلى مستوى الأقاليم والمناطق.

فكم هو رائع ومفيد أن يجتمع العلماء في كل منطقة ليتبادلوا الرأي فيما بينهم، ولينسقوا الجهود في نشاطهم العلمي والثقافي. وأن يجتمع الخطباء وخاصة قبيل مواسم الإرشاد والوعظ، ليتداولوا الفكر حول أوضاع المجتمع، ومحتوى وأساليب تثقيفه وتوجيهه.

تنقية الثقافة

تتنزل رسالة الله تعالى إلى البشر، على يد أنبيائه نقيَّة سليمة، لكن

---

(١) علي الخاقاني. شعراء الغري، ج ٥ صفحة ٣٣١ ج١١ صفحة ٣١١، (قم: مكتبة المرعشي).

البشر بفهمهم الخاطئ والمحدود، وبنزعتهم المادية المصلحية، وبدافع الشهوات والأهواء، يحرفون الرسالات الإلهية، وينحتونها حسب توجهاتهم ومصالحهم، ويضيفون إليها من عاداتهم وتقاليدهم، ومع الزمن يصبح ذلك الخليط المشوه ديناً ومقدساً.

حدث هذا لكل شرائع الأنبياء تقريباً. وإذا بالبيت الحرام والكعبة المشرفة، التي بناها ورفع قواعدها نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام لتكون قبلة الموحدين لله سبحانه، تصبح قاعدة تنتصب على ظهرها أصنام الشرك والوثنية، من قبل العرب المنحدرين من نسل نبي الله إبراهيم وذريته!!

ونبي الله موسى عليه السلام الذي قاوم برسالته التمييز العنصري الطائفي للفراعنة لتصبح توراته بعد تحريفها منبعاً للروح العنصرية ونظرية شعب الله المختار لدى الصهاينة!!

ورسالة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام التي أنزلها الله تعالى لهداية البشر إلى عبادته وتوحيده، أصبحت بالتزوير والتحريف مظلة لعقيدة الشرك والتثليث، ودافعاً نحو زخارف الحياة ومفاسدها !!

فهل نجا الإسلام، وسلمت رسالته من هذا الخطر الذي أصاب ما سبقه من الرسالات الإلهية؟

كلا، فما هو معروف من الإسلام مشوب في جانب كبير منه، بالتحريف والتزوير والتشويه.

صحيح أن القرآن الكريم بقي نصه سالماً مصوناً من أيّ تحريف أو

تغيير، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٢].

لكن القرآن الحكيم تعرض للتحريف والتزوير في تفسيره وفهم معانيه، فأصبح أمامنا ركام متناقض في تفاسير آيات القرآن، وكثير من التفاسير تعكس محدودية أفكار أصحابها، وتبرر للفهم والتقاليد السائدة في عصورهم.. وإن كنا نعتز ببعض التفاسير القيمة، وعطاء المفسرين الواعين المخلصين الذين لم يفسروا آيات القرآن ولم يجيروها لصالح آرائهم وتوجهاتهم، بل اجتهدوا في فهم معانيها حسب قدراتهم ومستوى وعيهم..

أما السنة الشريفة فابتلاؤها أعظم، حيث كثر الكذابة على رسول الله ﷺ كما تنبأ هو بذلك حيث قال: «ستكثر علي الكذابة».

وهناك آراء المتكلمين المسلمين وما تحتويه من تناقضات ومعارك جدل محتدم، وآراء أصحاب المذاهب الفقهية وما تتضمنه من اختلافات..

وهناك محاولات الدس في تراث الإسلام من قبل الأعداء، والتأثيرات الفكرية والسلوكية التي نقلتها المجتمعات التي التحقت بالمسلمين.. وهناك ما تسرّب إلى الثقافة الإسلامية من فلسفة

---

(١) سورة الحجر، آية: ٩ .

(٢) سورة فصلت، آيتان: ٤١ ـ ٤٢.

الإغريق.. ومحاولات بعض الحكام المسلمين تطويع الدين وتشريعاته وفق رغباتهم.

كما أن حالة التخلف التي عاشتها الأمة طوال الفترة الماضية، انعكست على التراث الفكري والثقافي.

كل ذلك جعل في تراثنا وثقافتنا خليطاً من الآراء والتصورات المتناقضة والمعوقة للانطلاق والتقدم.

وعلماء الدين في هذا العصر، مطالبون بنفض غبار التخلف، وركام التحريف عن تراثنا وثقافتنا، ليعود للدين خلوصه ونقاؤه، ولتتحرر جماهير الأمة من أغلال الفهم القشري، وقيود الفكر الرجعي المتزمت، ولتستطيع ثقافة الإسلام الحقيقية مواجهة تحديات الحضارة المادية المتقدمة وتموجاتها الفكرية.

بالطبع لن تكون تلك مهمة سهلة ميسّرة بل إنها تحتاج إلى جهد علمي عميق لتمحيص القيم الأساس في الدين، والمقاصد العليا للشريعة، ولوضع المقاييس الدقيقة الثابتة التي نغربل على أساسها التراث ونحاكم مروياته.

كما تحتاج المهمة بعد ذلك إلى جرأة وشجاعة وإقدام، لأن إنكار ما ألفه الناس وتعودوا تقديسه باعتباره ديناً، أو عرض ما جهلوه من الدين وكان غائباً عن أسماعهم وأفهامهم.. إن ذلك يعني المواجهة والصدام مع مراكز القوى المتشبثة بالفهم السائد والمنتفعة منه، ومع عامة الناس المتدينين البسطاء والسطحيين..

وفى تاريخنا المعاصر نقرأ عن عالم ومرجع ديني كبير كيف اضطر للتراجع أمام تلك الضغوط حينما طرح رؤيته الإسلامية المخالفة للرأي السائد، وهو الإمام الشيخ محمد حسين النائيني (١٢٧٣هـ ـ ١٣٥٥هـ) وكان من كبار المجتهدين في النجف الأشرف في العراق، فقد ألف كتاباً ينتصر فيه لمبدأ الشورى (الديمقراطية) ويؤصل هذا المبدأ إسلامياً، ويهاجم الاستبداد والديكتاتورية ويشرّع مقاومتها دينياً، وصدر الكتاب تحت عنوان (تنبيه الأمة وتنزيه الملة).

يقول الأديب علي الخاقاني عن هذا الكتاب وصدوره: رسالة تنبيه الأمة وتنزيه الملة كتبها الإمام النائيني... وقد بين فيها أن الدين الإسلامي يدعو إلى الشورى، وتشكيل المجالس النيابية، لأخذ آرائهم في مقررات الدولة، وأن الدين الإسلامي دين الحرية لا دين التعسفية والذلة، وأنه يدعو إلى التعليم العام للنساء والرجال، وأنه يدعو إلى وجوب التعبير عن الآراء بصراحة، ومنه وجوب إصدار الصحف والنشرات إلى غير ذلك من الأمور التي كانت محظورة عند بعض أهل الدين المتطرفين بالرجعية.

واشتدت الضغوط على الإمام النائينى من الأوساط المتحجرة والرجعية فسحب الكتاب من الأسواق وسعى إلى جمعه وبذل على ما قيل يومذاك لشراء كل نسخة ما لا يقل عن ليرتين ذهبيتين، وهو مبلغ جد كبير كثمن لرسالة لم تزد على عشرات الصفحات[١].

(١) محمد سعيد الطريحي. الموسم، مجلة فصلية، العدد الخامس، المجلد الثاني ١٩٩٠م، صفحة ٤١ ـ ٤٢.

من أعلام الإصلاح الثقافي

وعلى الرغم من صعوبة مهمة الإصلاح وتنقية الثقافة الدينية، إلا أن العلماء المخلصين قد اقتحموا هذا الميدان، وتحملوا آلام ومشاكل موقفهم الشجاع بدافع ديني عقيدي.. وأثمرت أفكارهم وطروحاتهم تياراً دينياً تجديدياً. تعقد عليه آمال خلاص الأمة..

بالطبع فإن تضافر جهود العلماء، ودخول أكبر قدر ممكن منهم في ساحة الإصلاح يجعل المهمة أسهل، وتحقيق الهدف أسرع.

ومن علمائنا المخلصين والمكافحين لتنقية القضايا الدينية مما شابها وأدخل فيها من بدع وتحريفات، الإمام السيد محسن الأمين العاملي (١٢٨٤هـ ـ ١٣٧١هـ)، فإنه تصدى لترشيد الخطابات والمنابر في المجالس الدينية، ومحاربة ما يطرحه الخطباء من روايات وقصص لا صحة لها. وتخالف أصول العقيدة، كما قاوم الزيادات والممارسات الخاطئة، التي أدخلت على الشعائر الحسينية أيام عاشوراء، وألف كتاباً استدلالياً منطقياً بعنوان (التنزيه في أعمال الشبيه). ولما صدر الكتاب، وانتشرت آراء السيد الأمين الإصلاحية، ثارت ثائرة المعارضين للإصلاح والتطوير.

وكان يرحمه الله يتوقع ذلك، ويراقب التفاعلات، وكتب في مذكراته ما يلي: «وقد عملت في ذلك رسالة التنزيه، وطبعت وترجمت إلى الفارسية، وقام لها بعض الناس وقعدوا، وأبرقوا وأرعدوا، وجاشوا وازبدوا، وهيجوا طغام العوام والقشريين، ممن ينسب للدين، فذهب

زبدهم جفاء ومكث ما ينفع الناس في الأرض.. لقد أشاعوا في العوام أن فلاناً حرم إقامة العزاء، بل زادوا على ذلك أن نسبونا إلى الخروج عن الدين، واستغلوا بذلك بعض الجامدين من المعممين».

وألف بعض العلماء كتباً في الرد على السيد الأمين، والواقع أن المعارضة الشعبية لدعوة السيد محسن الأمين، قد بلغت حدًّا من الهياج دفع بعض مناصريه إلى الكتابة إليه، يرجونه لسحب الرسالة من المكتبات وإخفائها عن العيون، خوفاً على شخصه من التعرض للأذى.

كما أنشد بعض الشعراء القصائد والأبيات في التهجم على شخصيته كقول أحدهم:

يا عابراً أما مررت بجلق   فاعبث ببيت أمينها المتزندق

وجلّق هي الشام.

وقال آخر:

ذرية الزهراء إن عددت   يوماً ليطري الناس فيها الثنا

فلا تدعوا محسناً منهم   فإنها قد أسقطت محسنا

لكن السيد الأمين تحلى بالجرأة والشجاعة، وصمد أمام الضغوط والإثارات، واستمر يكافح لتنقية الدين من الشوائب مهما كلفه ذلك من ثمن، وأبلغ جملة تختصر موقفه الفقهي والاجتماعي في هذا المجال قوله: «الأشياء لا تغيّر حقائق الأشياء، وعادات الطغام من العوام لا تكون دليلاً للأحكام» ولم تقتصر جهوده النقدية الإصلاحية على

هذا الجانب، بل شملت العديد من مجالات الدين والثقافة، كبرامج الدراسة في الحوزات العلمية والمدارس الدينية، وعادات المجتمعات المتدينة وتقاليدها، وقضايا الخلافات المذهبية(١).

ومن المعاصرين نشيد بالجهود الكبيرة الجبارة التي بذلها عالمان من أعلام الأمة في هذا المجال هما: الشيخ محمد الغزالي والشهيد الشيخ مرتضى المطهري من إيران..

فقد انبرى الشيخ محمد الغزالي منذ نصف قرن من الزمن لنشر الفكر والثقافة الإسلامية الهادفة، ولتوعية الناس بحقائق، ومفاهيم دينهم، وتحذيرهم من البدع والانحرافات والتحريف والتزوير الذي تسلل إلى الأفكار والممارسات الدينية..

وقد صدر له أخيراً كتابان قيّمان يحملان خلاصة نضاله وأفكاره في هذا المجال هما: كتاب (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) وكتاب: (تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل).

وكتاب ثالث لا يقل عن هذين الكتابين قيمة وأثراً وهو (كيف نتعامل مع ا لقرآن).

والقضية المحورية في هذه الكتب الثلاثة هي الفرز والتمييز بين ما هو دين في حقيقته وما أُلحق بالدين وتسرب إليه من آراء وأعراف وتقاليد.. كما تركز فصول هذه الكتب على ضرورة الرجوع إلى المنابع

---

(١) المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، المصلح الإسلامي السيد محسن الأمين، صفحة ٢٨، طبع سنة ١٩٩٢م.

الأصيلة للإسلام، والاهتمام بقيمه وقضاياه الأساس، بدل الانشغال بالجزئيات والأمور الجانبية الهامشية، التي جعلت المسلمين متخلفين عن ركب الحضارة، غارقين في الجهل والمشاكل والأزمات..

أما الشهيد المطهري (١٣٣٨هـ ـ ١٣٩٩هـ) فقد كرس نشاطه الفكري والعلمي لإماطة الحجب وإزالة الأستار ونفض الغبار عن حقائق الإسلام، وكان يسلط الأضواء في كتاباته وخطاباته على مواقع الزيف والتحريف في الثقافة المتداولة في الوسط الديني، ويفضح الممارسات والتقاليد الخاطئة التي ينظر إليها الناس كمقدسات يقول رحمه الله: «منذ عشرين عاماً حيث مسكت القلم وكتبت المقالات والكتب لم يكن لي هدف من كل ما كتبته إلا حل المشاكل والجواب على الأسئلة المطروحة في عصرنا في مختلف المسائل الإسلامية.

وقد كتبت في الموضوعات الفلسفية والاجتماعية والأخلاقية والفقهية والتاريخية. ومع أن مؤلفاتي تختلف من حيث الموضوع تماماً ولكن الهدف العام من جميعها أمر واحد فحسب: أن الشريعة الإسلامية المقدسة مجهولة لدى العامة، وقد حرفت حقائق هذا الدين في أنظار الناس تدريجياً، والسبب الأساس في تفرق جمع من الناس عن هذا الدين هو التعاليم الخاطئة التي ألقيت إليهم باسم الدين، وأن هذا الدين المقدس في الوقت الحاضر يصاب بالصدمات والضربات من جانب بعض المدعين حمايته أكثر من غيرهم، فالهجوم الاستعماري الغربي مع عملائه المعروفين والمجهولين من جهة، والقصور أو

التقصير الصادران من المدعين حماية الإسلام في هذا العصر من جهة أخرى كانت السبب في الهجوم التدريجي على الأفكار والنظريات الإسلامية في مختلف المجالات من الأصول والفروع. ولهذا فإنني ـ وأنا عبد ضعيف ـ رأيت من واجبي أن أقوم بما أستطيع اسداءه من خدمة في هذا المجال»[١].

لقد تحدث المطهري وكتب ناقداً وضع الحوزات والمدارس العلمية الدينية، وجمود مناهجها، وضعف برامجها، وأخطاء طريقة الإدارة فيها.. كما عالج مسألة الفقاهة والاجتهاد ونقاط الضعف في مسارها وسلّط الأضواء على أسلوب ومحتوى الخطابات الدينية والمجالس الحسينية وما يتخللها من غلو وتحريف وتشويه.. وناقش وضع المرأة في المجتمع وتأثيرات رواسب الجاهلية في التعامل مع المرأة.. إلى كثير من القضايا الحساسة والخطيرة التي تعرض لها في كتبه العديدة ومحاضراته الكثيرة..

لقد شق هؤلاء العلماء المصلحون من أمثال النائيني والغزالي والمطهري وغيرهم طريق غربلة الثقافة وتنقيتها، وعلى باقي العلماء تقع مسؤولية مواصلة هذا الطريق ليتجلى الإسلام في صورته الحقيقية القادرة على إقناع العقول واستقطاب النفوس، وحل مشاكل البشرية وأزماتها..

---

(١) المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، المطهري العبقري الرسالي، صفحة ٢٢.

معالجة المشاكل الراهنة

يتصور كثير من علماء الدين ودعاته أن مهمتهم الأساس هي إرشاد الناس لإصلاح آخرتهم، وتقديم الحلول للمشاكل التي يعانونها بعد الموت.. ولكن كيف يعيش الناس في هذه الدنيا؟ وكيف يعالجون المشاكل التي تواجههم في هذه الحياة؟ وهل ذلك من برنامج الدين ووظيفته أم ماذا؟

لا شك أن الإسلام جاء لإسعاد الناس في الدنيا قبل الآخرة: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[١]. ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾[٢] و﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٣] و﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٤].

وورد عن رسول الله ﷺ: «أعظم لناس همًّا المؤمن يهتم بأمر دنياه وأمر آخرته»[٥].

وروي أيضاً: «ليس منا من ترك دنياه لدينه، أو ترك دينه لدنياه»[٦].

وإنما ينجح الإنسان ويفوز في آخرته عبر تنظيمه وإصلاحه لدنياه

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٠١.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٦

(٣) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٥) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج ٣ صفحة ٣٣٠، نقلاً عن كنز العمال.

(٦) المصدر السابق.

كما يقول الإمام علي عليه السلام: «بالدنيا تحرز الآخرة»[١].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «نعم العون الدنيا على الآخرة»[٢].

وذلك يعنى أن يهتم علماء الدين بدراسة مشاكل المجتمع وقضاياه الراهنة ويقدمون له الفكر والثقافة التي تساعده على حل هذه المشاكل ومعالجتها، أما أن يترك الناس يتخبطون في أزماتهم الحياتية والمعاشية الحاضرة، بينما تقدم لهم الحلول والوسائل لتجاوز أهوال الآخرة والقيامة، فهذا تنكر لحقيقة الإسلام ولواقع الحياة..

فإذا كان الناس يعيشون أزمة السكن والمأوى في الدنيا فهل يقنعهم أن ندلهم على طريق توفير القصور لهم في الجنة عبر العبادات والذكر والدعاء.. وإذا كان الشاب يعاني صعوبة في الحصول على زوجة من الطين فهل تجديه نصائحنا له لتأمين عشرات الزوجات من الحور العين..

لقد نشر الكاتب المصري المعروف فهمي هويدي مقالة في إحدى الصحف انحى فيها باللائمة على العلماء والوعاظ اللذين يجترون للناس الحديث عن قضايا الغيب والقيامة بينما يتجاهلون البحث حول قضايا الشهود والحياة وكانت مقالته تحت عنوان: (أهوال الدنيا قبل أهوال الآخرة)[٣].

---

(١) الشريف الرضي. نهج البلاغة، خطبة رقم ١٥٦.

(٢) المحمدي الريشهري.. ميزان الحكمة، ج ٣ صفحة ٢٨٥.

(٣) فهمي هويدي. أزمة الوعي الديني، (صنعاء: دار الحكمة اليمانية) صفحة ٦٥.

والبعض من العلماء والخطباء يتحدثون حول العماميات والكليات والقضايا التاريخية دون أن يلامسوا في حديثهم وكتاباتهم قضايا الواقع المعيش..

إن هناك مشاكل رئيسة عامة تعاني منها الأمة الإسلامية بشكل عام كالتخلّف الحضاريّ، والتقهقر العلميّ والتكنولوجيّ، والاستبداد السياسي، وحالة التجزئة والخلافات الطائفية.. وهناك مشاكل خاصة تعانى منها بعض المجتمعات، كالإرهاب الفكري، والتمييز الطائفي، والبطالة، والأمية، وحياة البذخ والترف..

وعلى العلماء في عطائهم الثقافي أن يركزوا على المشاكل والقضايا التي يعانى منها المجتمع، ليرى الناس في دينهم أمل الخلاص ومشروع الإنقاذ، ولئلا يجدوا أنفسهم في حاجة إلى اتباع المبادئ والتيارات المخالفة للدين.. ومن ثم ليأخذ الإسلام دوره الريادي والقيادي في الحياة..

وإذا تأمّلنا أسلوب الأنبياء والرسل في دعوة مجتمعاتهم إلى الدين، وجدنا كل نبى يركز على معالجة أهم مشكلة يعاني منها مجتمعة، ويجعل تلك المعالجة عنواناً لدعوته ورسالته، مع أن كل الأنبياء يدعون إلى عبادة الله وتوحيده والخضوع لرسالته، ولكن المشروع الذي يقدمه كل واحد منهم للمجتمع، كان يركز على المشاكل والقضايا الرئيسة لذلك المجتمع.

فنبي الله شعيب عليه السلام كان يركز في دعوته على العدالة الاقتصادية

لما كان يعانيه مجتمعه من بخس وظلم في هذا المجال، وذلك واضح في حديث القرآن الحكيم عن دعوة نبي الله شعيب وسيرته في أكثر من سورة، كما في سورة الأعراف الآية ٨٥ ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وفي سورة الشعراء الآيات ١٧٧ إلى ١٨٣، يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

وتكرر ذلك في سورة هود الآيات ٨٣ و٨٥ وبنفس الكلمات تقريباً، أي الكيل والميزان والبخس.

بينما كان نبي الله لوط ﷺ يركز على مسألة الشذوذ الجنسي لأنه كان مشكلة مجتمعه يقول تعالى في سورة الأعراف الآيتان ٨٠ ـ ٨١: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾.

وفي الحديث عن نبي الله لوط في سورة النمل آية ٥٥ وسورة العنكبوت الآية ٢٩ يتكرر الموضوع نفسه أيضاً.

أما نبي الله موسى ﷺ فإن الحديث عن دعوته في القرآن الكريم

يقترن دائماً بالحديث عن طغيان فرعون ومواجهة نبي الله موسى له، لأن الاستبداد والطغيان السياسي كان هو المشكلة الرئيسة في عصر نبي الله موسى ولدى مجتمعه، لذا كانت مواجهة هذا الاستبدال والطغيان هي عنوان رسالة نبي الله موسى، وهي أول تكليف له في رسالته من قبل الله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[1] . ويتكرر الحديث عن فرعون في القرآن الكريم ضمن الحديث عن نبي الله موسى عليه السلام في نحو سبعين مورداً.

بينما نجد التركيز في رسالة نبي الله إبراهيم عليه السلام على قضية الوثنية وعبادة الأصنام يقول تعالى في سورة الشعراء الآيات ٦٩ ـ ٧٣: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ ويتكرر الحديث عن هذا الموضوع في قصة نبى الله إبراهيم عليه السلام في سورة الأنبياء الآية ٥٧ وسورة الأنعام الآية ٧٤ وغيرها.

ألا نستوحي من ذلك أن الاهتمام بالمشاكل الراهنة هو منهج رسالة الأنبياء؟

---

(١) سورة طه، آية: ٢٤.

الفصل الثاني

علماء الدين والشأن الاجتماعي

انكماش الدور الاجتماعي، لماذا؟

يعيش كثير من علماء الدين في مجتمعاتنا حالة من العزلة والانكفاء، فلا يُطلون على المجتمع إلا من نوافذ ضيقة محدودة تتمثل في التصدي للأدوار الدينية التقليدية كصلاة الجماعة وإجراء العقود ومراسيم الوفيات والإجابة عن الاستفتاءات الفقهية. ويعزفون عن أيّ تفاعل مع قضايا المجتمع المختلفة.

بالطبع هناك البعض من علماء الدين لا ينسحب عليهم هذا الوصف، غير أن حديثنا يخصّ السَّواد الأعظم منهم، أو على أقل تقدير، يخصّ من ينسحب عليهم ذلك.

الدوافع والأسباب

قد ينكفئ إنسان على نفسه وينزوي عن مجتمعه لأنه لا يحظى بالثقة

والقبول لدى الناس، أو لأنه لا يرى أمامه فرصاً واسعة للتعاطي مع الآخرين.

لكن هذا لا يرد غالباً على عالم الدين، الذي يتعامل معه الناس بثقة واحترام، ويخطبون ودّه ورضاه، ويتمنون مباركته لأي شأن من شؤون حياتهم.

إن أمام رجل الدين في مجتمعاتنا فرصاً للتحرك والتفاعل، لا تتاح لأي شخص سواه.

فلماذا يختار هؤلاء العلماء لأنفسهم حياة الانغلاق والعزلة؟ ويحجمون أنفسهم ضمن دور هامشي محدود في المجتمع؟

يبدو أن هناك عوامل عديدة فكرية ونفسية واجتماعية تكمن وراء هذه الحالة.

فمن الناحية الفكرية، يتبنى هؤلاء العلماء، مفاهيم وتصورات، تدفعهم إلى الابتعاد عن قضايا الناس، والتداخل معهم.

فمفهوم استحباب العزلة، والابتعاد عن مخالطة الناس، يعتبر من المسلمات عند هؤلاء، وقد خصصت لبحثه فصول وأبواب في أغلب مصادر التراث وكتب الأخلاق القديمة.

حيث وردت بعض النصوص والروايات، صريحة في التشجيع على الابتعاد عن الناس، وإن كانت تواجهها روايات ونصوص، تدفع باتجاه مخالطة الناس، والتفا عل معهم، لكن العديد من علماء السلف يرجح الكفة الأولى أي العزلة والانكفاء.

وهناك العديد من الكتب المختصّة لبحث موضوع العزلة عن الناس، ورجحانها على المخالطة والتداخل معهم نذكر منها بعض النماذج:

١. كتاب (العزلة والانفراد) للحافظ الإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي الشهير بابن أبي الدنيا (توفي ٢٨١هـ). وقد طبع أخيراً محققاً من قبل دار الوطن في الرياض سنة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٢. كتاب (التفرد والعزلة) لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري (توفي ٣٦٠هـ).

٣. كتاب (العزلة) لأبي سليمان حمد بن إبراهيم الخطّابي البستي (توفي ٣٨٨هـ) وهو مطبوع عدة طبعات.

٤. كتاب (الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت) للحسن بن أحمد بن عبد الله البغدادي، وقد طبع محققاً من قبل دار العاصمة ـ الرياض.

٥. كتاب (عزّ العزلة) لعبد الكريم بن محمد السمعاني (توفي ٥٦٢هـ).

٦. كتاب (العزلة) لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (توفي ٥٩٧هـ).

٧. كتاب (الأمر بالعزلة آخر الزمان) لمحمد بن إبراهيم الوزير (توفي ٨٤٠هـ)، نشر عن دار ابن القيم ـ الدمام.

وقد أفرد الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) (٤٥٠هـ ـ ٥٠٥هـ) كتاباً خاصًّا بعنوان (كتاب آداب العزلة) ذكر فيه اختلاف الآراء حولها لكن البحث في مجمله ترغيب في العزلة وبإلقاء نظرة فاحصة على ما ورد فيه من النصوص والقصص والشواهد تظهر لنا جذور وخلفية هذه الحالة..

ولنقتطع منه بعض الفقرات كنماذج.

قال ابن سيرين: العزلة عبادة.

وقيل: اتخذ الله صاحباً فودع الناس جانباً.

وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائي: عظني، قال: صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفر من الناس فرارك من الأسد.

وقال وهيب ابن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس.

وقال سفيان الثوري: هذا وقت السكوت وملازمة البيوت.

وقال إبراهيم النخعي لرجل: تفقه ثم اعتزل.

وقيل: كان مالك بن أنس يشهد الجنائز ويعود المرضى ويعطي الأخوان حقوقهم فترك ذلك واحداً واحداً حتى تركها كلها.

وقال الفضيل: إني لأجد للرجل عندي يداً: إذا لقيني أن لا يسلّم علي وإذا مرضت إن لا يعودني.

وقال أبو سليمان الداراني: بينما الربيع بن خيثم جالس على باب داره

إذ جاءه حجر فصك جبهته فشجه، فجعل يمسح الدم ويقول: لقد وعظت يا ربيع فقام ودخل داره فما جلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته.

وقال بشر بن عبد الله: أقل من معرفة الناس فإنك لا تدري ما يكون يوم القيامة فإن تكن فضيحة كان من يعرفك قليلاً.

وقال الفضيل: من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا تَرى ولا تُرى[١].

ثم يذكر ـ الغزالي ـ فوائد العزلة وغوائلها مع ترجيحه للعزلة حينما يقول في عنوان الباب الثاني: (في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الهوية في أفضلها) ويعدد للعزلة ست فوائد على نحو التفصيل فيكتفي هنا بذكر عناوينها وبداياتها:

«الفائدة الأولى: التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السماوات والأرض، فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إليه»[٢].

«الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان

---

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٢ صفحة ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٢٦.

لها غالبا بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة»[١].

وضمن هذه الفائدة يشير إلى موقع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن العزلة راجحة على التصدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قائلاً: «وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصول الدين وهو واجب ومن خالط الناس فلا يخلو من مشاهدة المنكرات فإن سكت عصى الله به، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر إذ ربما يجره طلب الخلاص عنها إلى معاصي هي أكبر مما نهى عنه ابتداء، وفي العزلة خلاص من هذا فإن الأمر في إهماله شديد والقيام به شاق»[٢].

«الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقل ما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات، فالمعتزل عنهم في سلامة منها»[٣].

«الفائدة الرابعة: الخلاص من شرّ الناس فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن والتهمة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وتارة بالنميمة أو الكذب فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدّخرونها لوقت تظهر فرصة للشرّ، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفّظ عن جميع ذلك»[٤].

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٢٨.

(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٢٨.

(٣) المصدر السابق، صفحة ٢٣٢.

(٤) المصدر السابق، صفحة ٢٣٣.

«الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك، وينقطع طمعك عن الناس، فإما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد، فإن رضا الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى، ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة وعيادة المريض، وحضور الولائم والاملاكات، وفيها تضييع الأوقات وتعرض للآفات ثم قد تعوق عن بعضها العوائق وتستقبل فيها المحاذير»[١].

«الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومقاساة حمقهم وأخلاقهم فإن رؤية الثقيل هي العمى الأصغر»[٢].

وبهذا يتضّح أنّ للعزلة والانغلاق فلسفة وخلفية فكرية وجذوراً ثقافية علماً بأن كتاب (إحياء علوم الدين) يعتبر من الكتب المصدرية الأساس التي ينتهل منها علماء الدين وخاصة من الطوائف السنية في مجال التربوي والأخلاقي.

والغريب أن المحقق المولى محسن الكاشاني (١٠٠٥هـ-١٠٩١هـ) الذي جاء بعد خمسة قرون من وفاة الشيخ الغزالي وقام بتهذيب (إحياء علوم الدين) فهدف تلافي ثغرات الكتاب وسماه (المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء) لكنه حينما يصل إلى كتاب العزلة فإنه يثبت كل نصوصه وأفكاره بل ويزيد عليها ما يؤيدها ويؤكدها[٣].

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٣٥.

(٣) المولى محسن الكاشاني. المحجة البيضاء، ج ٤، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ،(بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات) صفحة ٣.

ويـوازي (إحياء علوم الدين) عند أهل السنة كتاب (جامع السعادات) في أوساط علماء الشيعة، الذي يعتبر من أهم المراجع والمصادر الأخلاقية التربوية لمؤلفه المولى الشيخ محمد مهدي النراقي (١١٢٨هـ ـ١٢٠٩هـ).

وهذا الكتاب على أهمية مواضيعه وبحوثه إلا أنه أيضاً يفرد بحثاً حول أهمية العزلة وفضلها، مع أن المؤلف سعى إلى أن يكون طرحه متوازناً، حيث حكم بتخطئة من رجح العزلة أو المخالطة مطلقاً، بل هي قضية نسبية تختلف باختلاف الأشخاص والظروف. وممّا قاله ما يلي:

«إن الأفضلية فيهما ـ العزلة والمخالطة ـ تختلف بالنظر إلى الأشخاص والأحوال والأزمان والأمكنة»[1].

وإنه وبمجمل بحثه واستنتاجاته، يرجح حالة العزلة والانزواء فيقول: وبما ذكر يظهر أن الأفضل لمن بلغ مقام الأنس والاستغراق، الخلوة والعزلة، إذ لا ريب في أن المخالطة توجب السقوط عن مرتبة الشهود والأنس، ولا يتصور من فوائدها شيء يقاوم ذلك، ولذلك كان المحبون المستأنسون بالله يعتزلون عن الخلق ويؤثرون الخلوة»[2].

ويقول أيضاً: «فمن يتيسّر له منزلة بدوام الذكر والأنس بالله، وبدوام الفكر والتحقيق في معرفة الله، فالتجرّد والخلوة أفضل له

---

(١) محمدي مهدي النراقي. جامع السعادات، ج٣، الطبعة الرابعة، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات) صفحة ١٩٧.

(٢) المصدر السابق، صفحة ١٩٨.

من كلّ ما يتعلق بالمخالطة، فإنّ غاية العبادات، وثمرة المجاهدات أن يموت الإنسان محبًّا لله عارفاً بالله، ولا محبّة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلا بدوام الفكر، وفراغ القلب شرط لكلّ منهما، ولا فراغ مع المخالطة.

فإن قلت: لا منافاة بين المخالطة مع الناس والأنس بالله، ولذا كان الأنبياء مخالطين للناس مع غاية استغراقهم في الشهود والأنس.

قلنا: لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهراً والإقبال التام على الله سرًّا إلا قوة النبوة. فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك»[1].

إن هذه الثقافة التي ينتهل منها علماء الدين هي المسؤولة بشكل أساس عن توجّه أكثرهم باتجاه العزلة والانزواء، وعزوفهم عن ممارسة دور اجتماعي ظاهر ومؤثّر.

ولسنا الآن بصدد مناقشة هذه الآراء التي تدعو إلى العزلة لكنّا نكتفي بالإشارة إلى أنها بالشكل المطروح، تتنافى مع مجمل تعاليم الإسـلام ونهجه الاجتماعي، الذي يحتوي على مفردات وبرامج كثيرة تدفع الإنسان المؤمن للتفاعل مع مجتمعه والتصدي لقضاياه، وخدمة شؤونه، وأفضل ردّ على ما ذكروه من سلبيات التداخل مع الناس ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر

(١) المصدر السابق، صفحة ١٩٩.

على أذاهم»[١].

وأخرج البيهقي عن عسعس أن رسول الله ﷺ فقد رجلاً فسأل عنه فجاء فقال: يا رسول الله إني أردت أن آتي هذا الجبل فأخلوا فيه فأتعبّد، فقال رسول الله ﷺ: «لَصَبْرُ أحدكم ساعةً على ما يكره في بعض مواطن الإسلام خيرٌ من عبادته خالياً أربعين سنة»[٢].

هذا عن الجذور والخلفية الثقافية لحالة العزلة والانكفاء، أما الأسباب النفسية فتكمن في ضعف الثقة بالنفس، والتهيب من المشاكل، والخوف من الوقوع في الخطأ، والفشل مما يسبب فقدان السمعة الحسنة، لذلك كله يركن العالم إلى زاوية محرابه وقوقعة دوره المحدود، ليبعد نفسه عن كل المضاعفات والإشكالات التي يتعرض لها من يتصدى لشؤون المجتمع ويتفاعل مع قضاياه.

وعادة ما يشمت هؤلاء الانعزاليون بمن يتصدى اجتماعيًّا من أقرانهم من العلماء حينما تصيبه مشكلة أو تعترضه عقبة، ويوبخونه بقولهم: لماذا يورط نفسه؟ ألم يكن من الأفضل له عدم التدخل فيما لا يعنيه؟ وأن يكون كافًّا عافًّا؟

ومشكلة بعض هؤلاء العلماء المنغلقين أنهم لا يسكتون عمن يخالفهم التوجه والرأي، بل يحاولون إثارة الشكوك والشبهات ضد العلماء النشطين اجتماعيًّا، بدافع فرض توجّههم أو لنوازع الحسد

---

(١) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج٦ صفحة ٣٠٢، نقلاً عن كنز العمال خبر رقم ٤٨٦.
(٢) المصدر السابق.

والخوف من التفاف الناس حول غيرهم، وحتى لا يطالبهم الناس بتحمل المسؤولية أسوة بالعلماء العاملين.

من ناحية أخرى فهناك أسباب خارجية تتمثل في خطط الأعداء من قوى أجنبية وحكومات منحرفة وجهات متفرقة تسعى إلى إبعاد رجال الدين عن ساحة الحياة ليتاح لهم المجال للسيطرة على شؤون المجتمع. وحضور رجال الدين في واقع المجتمع والتفاف الناس حولهم يفوت الفرصة على هؤلاء الأعداء ويفشل مخططاتهم.

منطلقات الدور الاجتماعي

أولاً: منهجية الإسلام

جاء الإسلام ليخرج الإنسان من قوقعة ذاته، وليطلق فكره ومشاعره خارج حدود أنانيته، فيعيش هموم الآخرين، ويشاركهم آلامهم، ويتحمل مسؤوليته تجاههم.

فانفتاح الإنسان على بني جنسه، وتعاطيه معهم، هدف إلهيّ. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

وتعاون الناس فيما بينهم على ما ينفعهم ويصلحهم أمرٌ صريحٌ من قبل الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[2].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

وقد قرن الله تعالى عبادته وتوحيده بالاهتمام بالآخرين والإحسان إليهم. يقول تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[١]. وفي الإسلام منظومة متكاملة من التعاليم والبرامج التي تدفع الإنسان للتفاعل مع أبناء مجتمعه، وتربيه على الاهتمام بالناس وخدمتهم والاندماج معهم.

وفي تراثنا الإسلامي مجموعة ضخمة من النصوص والأحاديث التي توجه الإنسان المسلم لتحمل مسؤولياته الاجتماعية، والقيام بدور فاعل ايجابي في ساحة المجتمع.. لكن الانعزاليين والمنغلقين يتجاهلون كل تلك النصوص الواضحة الصريحة، ويتشبثون بنصوص محدودة يفسرونها حسب فهمهم وتوجههم.

ولنستضيء الآن ببعض تلك الأحاديث التوجيهية الرائعة:

عن رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله عزّ وجلّ التحبّب إلى الناس»[٢].

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: لمّا احتُضر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام جمع بنيه حسناً وحسيناً وابن الحنفية والأصاغر من ولده، فوصاهم وكان في آخر وصيته: «يا بنيّ عاشروا الناس عشرة إن غبتم

(١) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٢) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٧١ صفحة ١٥٨.

حنّوا إليكم، وإن فُقدتم بكوا عليكم، يا بنيّ إن القلوب جنود مجنَّدة تتلاحظ بالمودّة»[١].

وعن رسول الله ﷺ: «أيّما مسلم خدم قوماً من المسلمين إلا أعطاه الله مثل عددهم خدّاماً في الجنة»[٢].

وعنه ﷺ: «من أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم»[٣].

وقال ﷺ: «الخلق عيال الله فأحبّ الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سروراً»[٤].

وإذا كانت هذه منهجية الإسلام، وهذا ما تأمر به تعاليمه السامية، فإن أولى الناس بالالتزام بذلك هو رجل الدين، بل يجب أن يكون قدوة وأسوة للناس في هذا المجال.

إن رجل الدين لا بدّ له من القيام بدور الواعظ والإرشاد، وتوجيه الناس إلى تعاليم الدين، ولو في موارد الإجابة عن الاستفتاءات والأسئلة، فهل يتجاهل تلك التعاليم التي تدعو إلى خدمة الناس والتفاعل معها؟ وهل يتعمد الابتعاد عن ذكرها والخوض فيها؟ أم ماذا؟ إنه إن تجاهلها كان من القوم ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[٥] أي فرّقوه وجعلوه أعضاء كأعضاء الجذور فآمنوا ببعضه وكفروا

---

(١) محمد بن يعقوب الكليني. الأصول من الكافي، ج٢ صفحة ١٩٩.

(٢) المصدر السابق. صفحة ٢٠٧.

(٣) المصدر السابق. صفحة ١٦٣.

(٤) المصدر السابق. صفحة ١٦٤.

(٥) سورة الحجر، آية: ٩١.

ببعضه[(١)]. وإذا ما تحدث عن الأخلاق الاجتماعية في الإسلام وهو بعيد عن الالتزام بها، فهو مصداق لقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[(٢)].

ثانيا: فرص الهداية والتأثير

إن رجل الدين يحمل رسالة الإسلام للناس، ووظيفته الأساس هي الهداية والإرشاد، ودعوة الناس إلى الدين وإلى تطبيق أحكامه وتعاليمه.

وكلما تفاعل مع الناس أكثر، كان أقدر على هدايتهم وتوجيههم، حيث يصبح أكثر معرفة بأحوالهم وخصائصهم، وأقدر على تشخيص الأساليب المؤثرة في نفوسهم، وأعرف بما يحتاجون إليه من توجيه وتهذيب، كما أن الجمهور سيكون أسرع استجابةً إليه، وتقبّلاً لإرشاداته، حينما تتمكن مودته ومحبته في قلوبهم، وحينما يرونه مهتمًّا بشؤونهم ومصالحهم وقضاياهم.

إن رجل الدين الناجح هو الذي يشارك الناس آلامهم وآمالهم ويتصدى لخدمتهم والإحسان إليهم يقول الإمام علي عليه السلام: «الإحسان محبّة»[(٣)].

---

(١) الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ١٤، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة) صفحة ٤٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٤.

(٣) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج ٢ صفحة ٤٤٢.

ورائع جداً قول رسول الله ﷺ: «زينة العلم الإحسان»[(١)]، فبخدمة الناس والإحسان إليهم تظهر قيمة العلم، وتتعزز مكانة العالم ويزداد احترامه في المجتمع.

وإذا ما كان العالم محتاجاً إلى دعم الناس وتجاوبهم مع رسالته وتقبّلهم لبرامجه فإنه يستطيع تحصيل ذلك عبر التفاعل معهم والإحسان إليهم يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من كثر إحسانه كثر خدمه وأعوانه»[(٢)].

وعن رسول الله ﷺ: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»[(٣)].

ثالثاً: قيادة المجتمع إلى الخير

حينما يتصدى علماء الدين لقضايا الناس وإدارة شؤونهم المختلفة، فستكون أزمّة أمور المجتمع بأيديهم، ويصبحون في موقع القيادة التي يجب أن يمارسوها.

أما إذا ما انعزلوا عن الناس وابتعدوا عن ساحة الحياة فقد يتيح ذلك الفرصة لغير الكفوئين والمخلصين ليسيطروا على شؤون المجتمع وليتلاعبوا بمصيره.. أو يعاني الناس من الضياع والمشاكل والأزمات..

---

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٧١ صفحة ٤١٨.

(٢) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج ٢ صفحة ٤٤٣.

(٣) محمد بن الحسن بن شعبة الحراني، تحف العقول، صفحة ٣٢.

إن حضور عالم الدين في ساحة المجتمع، ومبادرته لخدمة المصلحة العامة، يجعله في موقع القيادة والتأثير يقول الإمام عليّ عليه السلام: «وأفضل على من شئت تكن أميره»[1].

والمؤسف جدًّا أنّ بعض علماء الدين ينتقدون بعض المشاريع والمؤسّسات في المجتمع، دون أن يكلفوا أنفسهم المبادرة لصنع البديل، أو التداخل معها لإصلاح ما يمكن إصلاحه فيها.

فينتقدون برامج الجمعيات الخيرية، أو يعترضون على أوضاع بعض المستشفيات، أو ما يجري في الأندية الرياضية، أو حتى مناهج الدراسة في المدارس الرسمية، لكنّهم لا يتحرّكون لصنع البديل الأفضل، وهو ممكن في غالب الحالات إذا ما توفّر السعي وبذل الجهد.

يقول المرجع الديني السيد محمد الشيرازي:

«إن الإسلام لم يحرّم شيئاً إلا لضرر فيه، ثم لم يكتف بذلك، حتى وضع له بديلاً يسدّ الحاجة ـ كاملاً ـ وهو خال عن الأضرار التي من أجلها حرّم الإسلام ما حرّم، فالسلبية جزء، والإيجابية جزء آخر، وبعض القيادات الإسلامية، اكتفت بالسلبية من دون أن تفتح إلى جانبها الإيجابية، ولذا اتُّهم الإسلام بالجمود، واتُّهم حملته بالرجعية، فمن الضروري على القادة الإسلاميين أن يحلوا المشكلة، بجعل بديل صالح مواكب للزمن بل سابقٍ عليه اتجاه كل محرّم إسلامي.

مثلاً: إذا بيّنوا حرمة السينماءات الداعرة والمباغي والأحواض ـ برك

---

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٤ صفحة ٤٢١.

السباحة ـ والمدارس المختلطة، والبنوك الربوية، فتحوا سينماءات نظيفة تستهوي الناس لما فيها من الأدب والفنون والألعاب والمناظر المباحة، وسهلوا أمر زواج العزاب بما يتمكن كلّ شابٍّ وشابّةٍ من الزواج المبكر، وبنوا الأحواض المغرية بدون اختلاط، وأسّسوا المدارس، لكلّ جنس على حدة، وفتحوا البنوك التي تقضي كل الحاجات المصرفية بدون الربا، وهكذا وهلمّ جرًّا في مختلف شؤون الحياة»[١].

آفاق العمل الاجتماعي

١. مشاركة الناس

لا يمكن حصر مجالات التفاعل مع المجتمع لكننا سنشير إلى بعض الآفاق كأمثلة ونماذج:

في مناسبات الفرح أو الترح، والسرور أو الحزن، يودّ الإنسان أن يستشعر تعاطف الآخرين معه ومواساتهم له، حتى ترتفع معنوياته وتتقوّى روحيته، وترتاح مشاعره.

والعالم الديني يجب أن يكون حريصاً على مشاركة الناس في أفراحهم وأتراحهم، وأن يشعرهم بوقوفه إلى جانبهم في الظروف الحسّاسة والأوقات الهامة..

وهو بذلك يترجم تعاليم الإسلام الداعية إلى الاهتمام بمشاعر الناس وإدخال السرور على قلوبهم.

---

(١) السيد محمد الشيرازي. نحو يقظة إسلامية، الطبعة الاولى١٩٨٧م، (بيروت: دار العلوم) صفحة ٨٦.

قال رسول الله ﷺ: «من سَرَّ مؤمناً فقد سرَّني ومَنْ سرّني فقد سَرّ الله»[١].

وقال ﷺ: «إن أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ إدخال السرور على المؤمنين»[٢].

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «ما عُبِدَ الله بشيء أحبّ إلى الله من إدخال السرور على المؤمن»[٣].

وهناك نصوص وتعاليم كثيرة حول موارد مواساة الناس والتعاطف معهم، مسجلة في المصادر الدينية، تحت عناوينها المختلفة، كعيادة المريض، وتشييع الجنائز، وحضور الأعراس، واستقبال الحجيج، والتزاور وما أشبه.

وإذا ما واظب العالم الديني على مشاركة الناس في مناسباتهم المختلفة، فإنه بذلك يكسب قلوبهم، وتتوثق روابطه معهم، كما يصبح قدوة حسنة لسائر أبناء المجتمع، مما يقوي تماسك المجتمع، ويعمر أجواءه بالمودّة والحب.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يتلطّف بخواطر أصحابه، ويتفقّد من انقطع منهم عن مجلسه. وكان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيّام سأل عنه، فإذا كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن

---

(١) محمد بن يعقوب الكليني. الأصول من الكافي، ج ٢ صفحة ١٨٨.
(٢) المصدر السابق، صفحة ١٨٩.
(٣) المصدر السابق، صفحة ١٨٨.

كان مريضاً عاده[١].

٢. بذل الجاه وقضاء الحوائج

للعالم الديني مكانة مرموقة واحترام كبير في المجتمع، وذلك يتيح له فرصة المساعدة على حلّ الكثير من المشاكل، وقضاء الحوائج، التي تحتاج إلى سعي من له كلمة مسموعة، ورأي مطاع واحترام مفروض.

إن بعض المواطنين تتعطّل معاملاتهم لدى الدوائر والأجهزة الحكومية، وبعض الناس تكون لهم حاجات مرتبطة بذوي الشأن والوجاهة في المجتمع من زعماء وأثرياء، وهناك من يعاني من مشاكل مالية أو اجتماعية، كالخلافات التي تحتاج إلى تدخّل لإصلاح ذات البين.

وعادة ما يكون بمقدور العالم الديني أن يتدخّل لمساعدة هؤلاء، بكلمة منه أو رسالة أو لقاء مع الجهات المعنية، وعليه أن لا يتردّد في ذلك فهو استثمار للمكانة التي يتمتّع بها، وبذل للجاه الذي منحه الله إيّاه.

ومؤسف أن بعض العلماء يبخل بجاهه على المحتاجين من الناس، ويرى أن في ذلك نوعاً من المذلّة أو الخفة والابتذال، بل يتردّد في استخدام موقعيته حتى في مناصرة القضايا الدينية حفاظاً على هيبته! وصوناً لاحترامه !

---

(١) الشيخ يوسف النبهاني. وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ، ١٩٧٠م، (بيروت: دار مكتبة الحياة) صفحة ١١٩.

لهذا الصنف من العلماء الذين يبخلون ببذل جاههم لمصالح الناس، ويمتنعون عن السعي في حوائج المحتاجين نسوق الروايات والأحاديث التالية:

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليسأل العبد في جاهه كما يسأل في ماله، فيقول: يا عبدي رزقتك جاها فهل اعنت به مظلوماً، أو أغثت به ملهوفاً»(١).

وروى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «ما من مؤمن بذل جاهه لأخيه المؤمن إلا حرم الله وجهه على النار، ولم يمسّه قتر ولا ذلّة يوم القيامة، وأيّما مؤمن بخل بجاهه على أخيه المؤمن وهو أوجه جاهاً منه إلا مسّه قتر وذلّة في الدنيا والآخرة وأصابت وجهه يوم القيامة لفحات النيران معذّباً كان أو مغفوراً له»(٢).

وعن رسول الله ﷺ: «من سعى في عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين في سبيل الله»(٣).

وينقل لنا التاريخ كيف كان الأئمة العظام يستجيبون لمن يطلب منهم السعي ولو لقضية صغيرة متواضعة ولا يتردّدون في بذل جاههم لذلك، فقد روي أن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام مر بأصحاب التمر فإذا هو بجارية تبكي فقال: يا جارية ما يبكيك؟

---

(١) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج٢ صفحة ١٩٨.

(٢) المصدر السابق، صفحة ٥٤١.

(٣) المصدر السابق، صفحة ٥٣٨.

فقالت: بعثني مولاي بدرهم فابتعت من هذا تمراً فأتيتهم به فلم يرضوه، فلما أتيته به أبى أن يقبله.

قال: يا عبد الله إنها خادم وليس لها أمر، فاردد إليها درهمها وخذ التمر.

فقام إليه الرجل فلكزه !

فقال الناس: هذا أمير المؤمنين !

فربا الرجل ـ أخذه الربو وضيق التنفس ـ واصفرّ وأخذ التمر وردّ إليها درهمها. ثم قال: يا أمير المؤمنين أرضَ عني، فقال: ما أرضاني عنك إن أصلحت أمرك[1].

ويأتي أحد المؤمنين إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام يطلب منه التوسط إلى والي الأهواز النجاشي لكي يسقط عنه ما عليه من ضرائب، فيلبي الإمام طلبه فوراً ويكتب معه رسالة إلى النجاشي نصها «بسم الله الرحمن الرحيم سرَّ أخاك يسرّك الله»[2].

٣. رعاية الضعفاء

التعامل مع الضعفاء والمنكوبين هو مقياس التضامن والتماسك في المجتمع، فإذا ما تركوا يعانون الآلام والمصاعب دون رعاية وعطف، فذلك يعني خواء المجتمع وانعدام القيم الإيمانية الأخلاقية.

أما المجتمع الإيماني المتماسك فهو الذي يوفر الرعاية والعطف لكل

---

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج ٤١ صفحة ٤٨.

(٢) محمد بن يعقوب الكليني. الأصول من الكافي ج ٢ صفحة ١٩٠.

أفراده الضعفاء والمنكوبين.

والمسؤولية تقع على عاتق الجميع، ومن يتجاهل حالات الضعف في المجتمع فتدينه كاذب زائف وإن مارس كل العبادات والشعائر يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[(١)].

إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان، إنما هي تحول في القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية، المحتاجين إلى الرعاية والحماية، والله لا يريد من الناس كلمات، إنما يريد منهم معها أعمالاً تصدقها، وإلا فهي هباء، لا وزن لها عنده ولا اعتبار[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع»[(٣)].

ويقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «ما من أهل قرية يبيت فيهم جائع ينظر الله إليهم يوم القيامة»[(٤)].

وأولى الناس بالتصدي لرعاية الضعفاء والمنكوبين هو العالم الديني لما يفترض فيه من التزام بأوامر الله تعالى، ولأن الحقوق الشرعية عادة ما تسلم إليه.

---

(١) سورة الماعون.

(٢) سيد قطب. في ظلال القرآن ج ٨، الطبعة الخامسة ١٩٦٧م، (بيروت: دار إحياء التراث العربي) صفحة ٦٨٠.

(٣) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة ج ٢ صفحة ١٩٤.

(٤) المصدر السابق.

وقد ضرب أئمة أهل البيت عليهم السلام أروع الأمثلة في الاهتمام بضعفاء الناس ومحتاجيهم..

فقد روي أن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام مر بشيخ مكفوف كبير هو يسأل الناس.

فقال عليه السلام: ما هذا؟

قالوا: يا أمير المؤمنين نصراني !

فقال: استعملتموه حتى كبر، وعجز منعتموه؟

ثم التفت إلى مسؤولي بيت المال وقال: «أنفقوا عليه من بيت المال»[1].

وروى أبو الطفيل: أن عليّاً (عليه الصلاة والسلام)، كان يدعو اليتامى فيطعمهم العسل حتى قال بعض أصحابه: لوددت أني كنت يتيماً، وكان ذلك منه اقتداء برسول الله، حيث كان الرسول صلى الله عليه وآله لا تخلو داره على صغرها من يتيم، وكان يقول: «خير بيوتكم بيت فيه يتيم»[2].

وكان الإمام علي ابن الحسين زين العابدين عليه السلام ليخرج في الليلة الظلماء، فيحمل الجراب على ظهره، وفيه الصرر من الدنانير والدراهم، وربما حمل على ظهره الطعام أو الحطب، حتى يأتي باباً فيقرعه، ثم يناول من يخرج إليه، وكان يغطي وجهه إذا ناول فقيراً لئلا يعرفه، فلما توفي

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة ج ١١ صفحة ٤٨.

(٢) السيد محمد الشيرازي. السبيل إلى إنهاض المسلمين صفحة ٤٣٥.

فقدوا ذلك فعلموا أنه كان علي بن الحسين[١].

وروي أنه كان يعول مئة بيت بالمدينة في السرّ، وكان في كل بيت جماعة من الناس[٢].

ومثل ذلك يروى في حياة سائر الأئمة عليهم السلام.

٤. الإصلاح ووحدة المجتمع

طبيعي أن تتعدد الآراء والتوجهات في كل مجتمع، وأن تتضارب المصالح بين الأفراد أو الجهات، لكن الوعي السليم والسلوك الحضاري يصنع جوّاً من المرونة وأطراً مناسبة لمعالجة قضايا الخلافات، ولترشيدها ومنعها من تمزيق وحدة المجتمع.

والعالم الديني ينبغي أن يكون منفتحاً على كل الجهات والاتجاهات وأن يسعى لتقريب وجهات النظر، وأن يجتهد في صنع الإطارات المناسبة لاحتواء تعدد الآراء وتضارب المصالح.

وإذا ما أخذ العالم الديني موقف اللامبالاة تجاه ما يجري في المجتمع من خلافات وصراعات فإنه بذلك يأخذ دور المتفرج على انهيار وحدة المجتمع وتلاشي قوته وتماسكه.

كما أنه ليس من الصحيح أن يستعجل الانحياز إلى هذه الجهة أو تلك فذلك يعمق الخلاف ويكرس حالة الصراع..

ففي مجتمعاتنا اليوم العديد من المؤسسات التي قد تختلف في أساليب

---

(١) محمدرضا الحكيمي، محمد الحكيمي، علي الحكيمي. الحياة ج٢ صفحة ٢٠٩.

(٢) باقر شريف القرشي. حياة الإمام زين العابدين ج ١ صفحة ٨٤.،

عملها، والعديد من الحركات والجهات الفكرية والسياسية التي قد تتباين آراؤها ومواقفها، بل والعديد من الانتماءات المذهبية والمرجعية، لكن ذلك لا يعني التناحر والتنازع، وإنما يجب أن يعترف كل طرف بحرية الآخرين، وأن يسعى الجميع للحوار من أجل تقريب وجهات النظر أو تحديد مواقع الاختلاف، ثم يتفق الجميع على الاحترام المتبادل والعمل في إطار المصلحة العامة.

ورجل الدين بما له من قبول في المجتمع يمكنه ممارسة دور إصلاحي كبير في هذا المجال وفي ذلك استجابة لأمر الله تعالى حيث يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[١].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»[٣].

وفي حديث آخر أنه ﷺ قال لأبي أيوب الأنصاري: «يا أبا أيوب ألا أخبرك وأدلك على صدقة يحبها الله ورسوله؟ تصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتباعدوا»[٤].

كما أن ممارسة هذا الدور الإصلاحي يحافظ على وحدة المجتمع

---

(١) سورة الأنفال، آية: ١.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج ٥ صفحة ٣٦٢، نقلاً عن كنز العمال، خبر رقم ٥٤٨٠.

(٤) المصدر السابق. صفحة ٣٦٣.

ويقوي موقع رجل الدين المصلح.

وعلى رجل الدين أن يكون حذراً من الوقوع في مطبّ الخلافات والصراعات فلا يُستدرج لإثارة خلاف أو صراع، فقد يحصل في بعض الموارد أن يندفع رجل الدين لطرح موضوع ثانويّ أو اتّخاذ موقف غير حكيم، يسبّب الصراع والنزاع في المجتمع.

وبالفعل فإن مجتمعاتنا تشهد بعض الخلافات المذهبية والمرجعية التي غالباً ما يقف وراءها رجالُ دينٍ يُفترض فيهم أن يقوموا بدور الإصلاح ويحافظوا على وحدة المجتمع.

من حق كل رجل دين أن يطرح آراءه المذهبية وانتماءه المرجعي وقناعاته الفكرية ولكن ضمن ضابطتين:

الأولى: الموضوعية وعدم التعبئة ضد الجهة الأخرى والتشهير.

والثانية: مراعاة الظروف وتقدير مدى أهمية الرأي والفكرة المطروحة. فليس كل فكرة صحيحة تستحق أن تُطرح في كل وقت، ونقدم أنموذجاً لذلك يتجلى في موقف أئمة أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ من مسألة النزاع حول خلق القرآن وهل أن كلام الله قديم غير مخلوق أم حادث مخلوق والتي أثرت بشكل حاد أواخر القرن الثاني الهجري وسببت الكثير من المحن والخلافات، لكن أئمة أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ منعوا أصحابهم عن الخوض في تلك المسألة، فقد سأل الريّان بن الصلت الإمام علي بن موسى الرضا ﴿عليه السلام﴾ وقاله له: «ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله لا تتجاوزه ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلوا».

وحدث سليمان بن جعفر الجعفري قال: «قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا ابن رسول الله، ما تقول في القرآن فقد اختلف فيه من قبلنا، فقال قوم: إنه مخلوق، وقال قوم: إنه غير مخلوق، فقال عليه السلام: أما إني لا أقول في ذلك ما يقولون ولكني أقول: إنه كلام الله».

فإنّا نرى أن الإمام عليه السلام يبتعد عن الخوض في تلك المسألة لما رأى أن الخوض فيها ليس لصالح الإسلام، وإن الاكتفاء بأنه كلام الله أحسم لمادة الخلاف، ولكنهم عندما أحسوا بسلامة الموقف أدلوا برأيهم في الموضوع، وصرحوا بأن الخالق هو الله وغيره مخلوق، وكتب الإمام علي بن محمد الهادي إلى بعض أصحابه ما نصه: «نحن نرى أن الجدال في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب، فيتعاطى السائل ما ليس له، ويتكلف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلاّ الله عزّ وجلّ، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله»[1].

وقد لاحظنا في هذا العصر، ومع توجّه أنظار القوى الطامعة في العالم إلى مناطقنا والخليج والجزيرة العربية ـ لما تختزنه من ثروات نفطية هائلة ـ، لاحظنا كيف أن جماعة من رجال الدين همّهم الشاغل طرح قضايا جانبية مختلف عليها مذهبيًّا، كزيارة القبور والتوسل بالأولياء، وإصدار فتاوى التكفير ضد من يخالفهم في الرأي، مما خلق في مناطقنا توتّراً وتشنّجاً طائفيًّا لا مثيل له في أيّ بقعة من العالم الإسلامي.

كما رأينا في بعض مجتمعاتنا، كيف يثار الخلاف حول مسألة جواز

---

(١) الشيخ جعفر السبحاني. الملل والنحل، ج ٢ صفحة ٢٩٩.

تقليد الميت بطريقة تجعل المختلفين في هذه المسألة وكأنهم أهل ملتين أو مذهبين متباينين !!

أو مسألة تحديد الأعلم ومرجع التقليد التي أصبحت لدى بعض الناس في مجتمعاتنا وكأنها مقياس الإيمان والكفر، وعليها يتوقف دخول الجنّة والنار !!

ومما يبعث على الأسى والتألم اندفاع بعض رجال الدين إلى إثارة هذه القضايا وخوض الصراعات من أجلها خلافاً للدور المرجو منهم والمناط بهم وهو إصلاح ذات البين والحفاظ على وحدة المجتمع.

٥. المؤسسات والأنشطة الاجتماعية

وجود المؤسسات الاجتماعية تربي المجتمع على قيم التعاون وتحمل المسؤولية، كما تملأ فراغ احتياجات الناس، وتساعد على حل المشاكل، وهي في المحصلة تقوي كيان المجتمع، وتصلب إرادته.

ورجل الدين ينبغي أن يقوم بالدور الأساس في إيجاد المؤسسات الاجتماعية بمختلف أشكالها، ويدعم المؤسسات القائمة، ويشجع الجمهور على التفاعل معها.

فبدل أن تكون مساعدة الفقراء والمحتاجين عملاً فردياً ارتجالياً يقوم به هذا الشخص أو ذاك، ينبغي العمل على تأسيس جمعية خيرية ترصد مناطق الضعف في المجتمع، وتتصدى لرعايتها، وتجتمع لديها صدقات الناس وتبرعاتهم.

وبالفعل توجد جمعيات خيرية في بعض مناطقنا لكن الكثير من

العلماء قد لا يجدون أنفسهم معنيين بها !!

وحتى الأنشطة الرياضية والمشاريع الصحية ومجالات الفن، وبرامج الترفيه، لماذا تكون بعيدة عن اهتمامات رجل الدين؟

إن مبادرته باتجاهها ومساهمته في توجيهها يضمن صحة مسارها، ويجعلها في إطار أحكام الإسلام وآدابه بأكبر قدر ممكن.

إن على رجال الدين أن يثبتوا من خلال مواقفهم أن الدين معني بتقدم المجتمع وبتنمية كفاءات وطاقات أبنائه.

الفصل الثالث

علماء الدّين والشأن السّياسي

الإنسان كائن سياسي

يتميز الإنسان عن سائر الحيوانات والكائنات بفكره وإرادته، فقد منحه الله تعالى القدرة على التفكير، وأعطاه نعمة الحرية والاختيار.

وبمقدار ما يمارس الإنسان هاتين الميزتين، ويفعِّلهما في حياته، يكون مستوى إنسانيته. فإذا ما تخلى عنهما واسترسل في حياته دون إعمال فكر ولا ممارسة إرادة فإنه يفقد إنسانيته ويكون «كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها»[1]، على حد تعبير الإمام علي عليه السلام.

بل يكون أحط قدراً من البهائم لأنها جبلت على ذلك بينما تنازل هو عن مكانته وكرامته يقول تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ

(١) الشريف الرضي. نهج البلاغة كتاب رقم ٤٥.

أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[١].

ولو تلمسنا الفرق بين حياة بهيمة من الأنعام، ضمن قطيع من البهائم، وبين حياة إنسان وسط مجتمعه، لكان الفارق الجوهري يكمن في وجود إدراك ورأي لدى الإنسان عما يحيط به، ويحدث حوله. بينما لا تدرك البهيمة شيئا مما يكتنفها من ظروف وأوضاع، فلا قابلية لها أن تعرف مالك القطيع، ولا جغرافية المرعى، ولا ما يسود واقعها من أحوال.

وإذا كان الإنسان مدركاً لتأثره وتأثيره فيما يحيط به، ومهتمًّا بملاحظة ما يجري حوله، فإنه يدرك بوضوح أن أقوى الجهات والجوانب تأثيراً في حياته هي جهة السلطة والقرار السياسي.

حيث يتسع ويمتد تأثير هذه الجهة ليطال مختلف جوانب حياة الإنسان بدءاً من لقمة عيشه وانتهاءً بحقه في الحياة والوجود. فالاقتصاد والتعليم والصحة والثقافة وحتى الجانب الديني وسائر الجوانب الأخرى تتأثر بالقرار السياسي بشكل أو بآخر.

يقول أحد الكتاب: «يظل عمل السياسي شاملاً ومتنوعاً شمول الحياة وتنوعها، فيتناول جميع فروع الحياة من أصغرها إلى أكبرها. فقد تمسّ سلطة التقرير السياسي مصير ينبوع من الماء في حديقة المنزل، كما تمسّ مصير ينبوع الحياة في نفس الإنسان، وقد تتعلق بها حياة الطيور

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٤٤.

كما تتعلق بها حياة الأمة بكاملها»[١].

وتعبيراً عن تأثير السلطة السياسية الشامل يقول الإمام علي عليه السلام: «إذا تغيّر السلطان تغيّر الزمان»[٢].

وسأل الخليفة هارون الرشيد، معن بن زائدة يوماً: كيف زمانك يا معن؟ فأجابه معن: يا أمير المؤمنين أنت الزمان فإن صلحت صلح الزمان وإن فسدت فسد الزمان.

ومن هنا قيل أيضاً: الناس على دين ملوكهم.

وإذا كانت السياسية وثيقة الصلة بتفاصيل حياة الإنسان من حيث تأثيراتها وانعكاساتها فمن الطبيعي أن تستقطب اهتمام الإنسان انطلاقاً من اهتمامه بذاته ودفاعه عن مصالحه.

والحد الأدنى من الاهتمام السياسي، لدى كل فرد، يتجلى في رأيه ومشاعره، تجاه السلطة السياسية وقراراتها، وممارساتها، وخاصة تلك التي تلامس أوضاعه، ومصالحه بشكل مباشر.

وقد يعبر عن تلك المشاعر والآراء أو يتكتم عليها لكنه لا يمكن أن يخلو منها فـ «كل ما يخطر للإنسان حول تنظيمه السياسي كما هو، وكما يجب أن يكون عليه، يمكن أن نعتبره أفكاراً سياسية، ولذلك كل إنسان هو في الواقع مفكر سياسي من حيث يدري أو لا يدري، لأن كل

---

(١) الدكتور حسن صعب. علم السياسية، الطبعة السابعة ١٩٨١م، (بيروت: دار العلم للملايين) ص٢٦.

(٢) الشريف الرضي. نهج البلاغة كتاب رقم ٣١.

إنسان لا يخلو من شعور ما تجاه تنظيمه السياسي يحاول أن يمنطقه على طريقته الخاصة في فكرة ما»[١].

ولذا قال أرسطوطاليس (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م)، الملقب بالمعلم الأول وصاحب المنطق قال: إن الإنسان بطبعه حيوان سياسي[٢].

وقد تتطور الحالة السياسية لدى الإنسان، من انبثاق المشاعر، وتكوين الرأي، إلى الإعلان عن الرأي، والتبشير به، وقد تتخطى ذلك إلى اتخاذ الموقف السياسي، بالممارسة العملية، أما المستوى المتقدم للحالة السياسية عند الإنسان، فيحصل عندما يتأتى له الوصول إلى مركز السلطة، وإصدار القرار السياسي، أو المشاركة في صنعه.

واللافت للنظر، أن نقرأ فيما ينقله لنا التاريخ، من تراث الإنسانية الموغل في القدم، ما يؤكد ضرورة الاهتمام بالشأن السياسي، من قبل كل فرد في المجتمع، كما في خطبة للقائد اليوناني (بريكليس ٤٩٠ ـ ٤٢٩ ق.م) جاء فيها: «ولا يعتبر الذين يمارسون الأعمال اليدوية غرباء عن السياسية، بل نحن الوحيدون الذين نعتبر الإنسان الغريب عن الشؤون العامة لا كشخص خلي البال بل كشخص لا خير فيه»[٣].

والاهتمام السياسي، ليس شيئا كمالياً، ولا أمراً ترفياً، بل هو من صميم وعي الإنسان لذاته، وحمايته لمصالحه وحقوقه، وجميل جدًّا

(١) الدكتور حسن صعب. علم السياسية صفحة ٤٦.

(٢) الدكتور عبد الرحمن بدوي. موسوعة الفلسفة، ج ١، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر)،صفحة ١٢٥.

(٣) الدكتور حسن صعب. علم السياسية، صفحة ٢٢.

ما عقده أحد الفقهاء من مقارنة وتمثيل بين اهتمام الإنسان بأمواله وممتلكاته، وبين اهتمامه بالقرار السياسي المؤثر على حياته فيقول:

«إن العقل العملي يشهد ويحكم بسلطة الناس على الأموال التي حازوها أو أنتجوها بنشاطاتهم، واستمرت سيرة العقلاء أيضاً على الالتزام بذلك في حياتهم ومعاملاتهم، ويحكمون بحرمة التعدي على مال الغير وكونه ظلماً، وقد نفذ الشرع أيضاً ذلك بحيث صار هذا من مسلمات فقه الفريقين، يتمسكون بها في الأبواب المختلفة.

«وروي في البحار عن عوالي اللئالي، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الناس مسلطون على أموالهم».

وفى رواية أبى بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: «إن لصاحب المال أن يعمل بماله ما شاء ما دام حيًّا. الحديث».

إلى غير ذلك من الروايات التي يستفاد منها هذه القاعدة الشاملة. فإذا فرضنا أن الناس على أموالهم بحيث يكون لهم التصرف فيها، إلا ما حرمه الله تعالى، وليس لغيرهم أن يتصرفوا في مال الغير إلا بإذنه فهم بطريق أولى مسلطون على أنفسهم وذواتهم. فإن السلطة على الذات قبل السلطة على المال بحسب الرتبة، بل هي العلة والملاك لها، حيث أن مال الإنسان محصول عمله، وعمله نتيجة فكره وقواه، فهو بملكه لذاته وفكره وقواه تكويناً، يملك أمواله المنتجة منها، والله تعالى خلق الإنسان مسلطاً على ذاته حراً مختاراً، فليس لأحد أن يحدد حريات الأفراد، أو يتصرف في مقدراتهم بغير إذنهم. وللأفراد أن ينتخبوا الفرد

الأصلح ويولوه على أنفسهم»[١].

الإسلام والاهتمام السياسي

الإسلام كدين أنزله الله تعالى لإسعاد الإنسان بترشيد فكره، وتهذيب نفسه، وإصلاح سلوكه، ما هو موقفه من الاهتمام بالشأن السياسي؟

بالطبع، لا يمكن أبداً أن يكبح عند الإنسان توجهه السياسي، ولا أن يحظر عليه الاهتمام بالشأن العام، لأن معنى ذلك أن يطلب منه التنازل عن أهم ميزات إنسانيته ـ كما سبق ـ وأن يشجعه على الاسترسال والخضوع للواقع المعيش دون أيّ وعي أو محاولة تأثير.

ثم أن الإسلام جاء لإحقاق الحق، وإقامة العدل في حياة البشر، فلا بدّ أن يعبئ كل أتباعه لإنجاز ذلك الهدف، مما يعني توجيههم نحو الفاعلية والنشاط الاجتماعي، في كل ميادينه وعلى أعلى مستوياته.

وللإسلام برنامج ونظام في الحكم وإدارة شؤون المجتمع، ولا يمكن أن يشق ذلك البرنامج طريقه للتنفيذ والتطبيق ما لم يتحمل أبناء الإسلام مسؤولية العمل من أجله.

لكل ذلك يمكننا القول بثقة أن الإسلام يوجب على أبنائه الاهتمام بالشأن السياسي، ونلحظ موقف الإسلام هذا من خلال توجيهاته التي تحمل المسلم مسؤولية ما يحدث في المجتمع، وتطالبه بالتصدي للقضايا والشؤون العامة.

---

(١) حسن علي المنتظري. دراسات في ولاية الفقيه، ج ١، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، (بيروت: الدار الإسلامية) صفحة ٤٩٥.

يقول تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾[١].

ويقول ﷺ: «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٢].

وعنه أيضاً ﷺ: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[٣].

ونلحظ ذلك جليًّا في تشريع فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، التي هي واجبة عيناً على كل مسلم كوجوب الصلاة والصيام. يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[٥].

والمعروف الذي يجب على المسلم أن يأمر به هو كل ما فيه خير ومصلحة في جميع المجالات والميادين، والمنكر الذي يجب عليه مقاومته هو كل شر وسوء في كل الجوانب والحقول.

وكثيرة هي التعاليم والمفردات الإسلامية التي تتضمن مدلولات ووظائف سياسية يخاطب بها الإنسان المسلم كواجب النصيحة وخاصة لأئمة المسلمين، وواجب رفض الظلم ومقاومته، وإقامة العدل والدفاع عنه، ومناصرة المظلومين والمضطهدين.

---

(١) سورة الصافات، آية: ٢٤.

(٢) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة ج ٤ صفحة٣٢٧.

(٣) محمد بن يعقوب الكليني. الأصول من الكافي، ج٢ صفحة١٦٣

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

وإذا كنا في السابق بحاجة إلى البرهنة والاستدلال على الجانب السياسي للإسلام، وعدم الفصل بين الدين والسياسة، فإننا الآن في غنى عن ذلك إلى حد ما بعد انبثاق الصحوة الإسلامية، وانتشار فكر الإسلام الأصيل.

وإذا كان المطلوب من كل فرد مسلم أن يهتم بالشؤون العامة والقضايا السياسية، فإن عالِم الدين لا يكفي منه مستوى الاهتمام الذي يؤديه سائر أفراد المجتمع، بل هو مطالب بأعلى درجات الاهتمام وارفع مستوياته.

أولاً: لموقعه القيادي الذي تؤكده النصوص والأحاديث الدينية.

كقوله ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي» قيل: يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: «الذين يأتون من بعدي يروون حديثي وسنتي»[1].

وعنه ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء»[2].

وقال الإمام علي ﵇: «العلماء حكام على الناس»[3].

وعنه أيضاً: «إن مجاري الأمور والأحكام علي أيدي العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه»[4].

وهذه الموقعية تفرض عليه التصدي لقضايا الأمة وشؤون المجتمع.

---

(١) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي. من لا يحضره الفقيه، ج ٤، الطبعة الخامسة ١٣٩٠هـ، (طهران: دار الكتب الإسلامية)، حديث رقم ٩١٥ صفحة٣٠٢.

(٢) محمد بن يعقوب الكليني. الأصول من الكافي، ج ١ صفحة ٣٤.

(٣) عبد الواحد الآمدي. غرر الحكم ودرر الكلم، كلمة رقم ٥٠٦.

(٤) الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني. تحف العقول، صفحة ١٧٢.

ثانياً: للمسؤولية التي يضعها الإسلام على عاتق عالِم الدين:

حيث تعتبره الكثير من النصوص مسؤولاً بالدرجة الأولى عمّا يحدث في المجتمع، فقد وجه الله تعالى التوبيخ واللوم لعلماء بني إسرائيل لأنهم لم يقاوموا الانحرافات الحادثة في عصرهم. يقول تعالى: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[١].

وعن رسول الله ﷺ: «إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالِم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»[٢].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «وما أخذ الله على العلماء إلا يُقارُّوا على كِظّة ظالم ولا سغب مظلوم»[٣].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «أما ليحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم»[٤].

ثالثاً: والعالم بحكم معرفته بالدين واطلاعه الواسع على مبادئه وتعاليمه، فإنه يفترض فيه أن يكون الأكثر التزاماً بأحكام الدين وتوجيهاته، والأسبق لتطبيقها وتنفيذها يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٥]، وبذلك يكون قدوة لغيره.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٣.

(٢) محمد بن يعقوب الكليني. الأصول من الكافي، ج ا صفحة ٥٤.

(٣) الشريف الرضي. نهج البلاغة، خطبة رقم ٣.

(٤) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج ٩٧ صفحة ٨٦.

(٥) سورة فاطر، آية: ٢٨.

ومع وضوح هذه الحقائق إلا أن غالبية علماء الدين لهم موقف سلبي تجاه الشأن السياسي، فلا يرون أنفسهم معنيين به، بل ينأون بمقامهم عن التلوث بقضايا السياسية والحكم.

وينطلق هذا الموقف من فهم متخلف خاطئ لدور الدين في الحياة، فهو عندهم تعاليم روحية أخلاقية لتحصيل الجنة في الآخرة، وليس نظاماً شاملاً لإدارة حياة البشر في الدنيا.

وطبقاً لهذا الفهم فعالِم الدين معني بالشعائر والممارسات الدينية العبادية وبالوعظ والإرشاد الأخلاقي.

وقد عمل الاستعمار الغربي كثيراً للترويج لفكرة فصل الدين عن السياسة في أوساط المسلمين كما هو حال الكنيسة المسيحية.

كما وجد الحكام المحليون في هذه الفكرة ضالتهم المنشودة، ليحكموا وفق رغباتهم وشهواتهم دون أن يردعهم رادع أو يعترضهم معترض.

إضافة إلى ذلك فإن سياسية الاستبداد واحتكار السلطة المعمول بها في أكثر بلاد المسلمين، وما يرافقها من إرهاب وقمع، صيّرت الاقتراب من الشأن السياسي أمراً بالغ الخطورة والضرر.

وظيفة التوعية السياسية

إن من أولى مهام علماء الدين تبيين برامج الإسلام وأحكامه وتعاليمه في مجال السياسية والحكم. فما دمنا نعتقد بشمولية الإسلام واستيعابه لجميع جوانب الحياة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً

وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[١]. وإنه الدين الكامل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً﴾[٢]، فلا بدّ أن تكون للإسلام أنظمته وبرامجه في مجال السياسية والحكم.

فمن يبين تلك الأنظمة والبرامج؟ ومن يستنبط الأحكام الشرعية في هذه الأمور؟

العلماء هم المكلفون بهذه المهمة، ولا يصح لهم التواني في القيام بها طبقاً لميثاق الله تعالى المأخوذ عليهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾[٣].

لكنّ المؤسف جدًّا أن نرى العلماء يتوغلون ويتعمقون في بحث وطرح المسائل العبادية المحدودة دون أن يقتربوا من بحث الشؤون السياسية والقضايا العامة للأمة.

إن الساحة الفكرية العالمية مزدحمة بالنظريات والطروحات التي تعالج التحديات الخطيرة المقلقة لبني البشر، وهناك الأفكار والبرامج المتصارعة حول قضايا السلطة وأساليب التنمية الاقتصادية وتوزيع الثروة، وحول وسائل التقدم الاجتماعي.. وقلّ أن ترى لعلمائنا مشاركة في هذا المعترك لأنهم مشغولون ببحث وتمحيص مجموعة من القواعد الأصولية والمسائل الفقهية وبشكل مكرور ومعاد!!

---

(١) سورة النحل، آية: ٨٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

ولما أتيحت الفرصة لعلماء الدين في إيران أن يطبقوا الشريعة الإسلامية وجدوا أنفسهم أمام نقص واضح كبير في تقديم الحلول والمعالجات لمسائل الحكم وإدارة شؤون البلاد على ضوء الآراء والبحوث الفقهية المتوفرة. كما صرح بذلك الشيخ هاشمي رفسنجاني ـ رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية السابق ـ في حديثه عن العقد التي واجهت مجلس الشورى الذي تولى رئاسته خلال السنوات الأولى من تأسيسه يقول: «واجهنا في المجلس معضلة حقيقية تتمثل في التفاوت الهائل بين ما لدينا من فتاوى وآراء فقهية، وبين ما تحتاجه البلاد من تشريعات لضمان مصالح الناس وضمان الحفاظ على حركة الدولة في الإطارات الدينية، فكلما أردنا وضع قانون لتنظيم قضية من القضايا الضرورية، واجهنا الإشكال الناشئ عن عدم وجود آراء فقهية، أو عجز الآراء الموجودة عن مطابقة المصالح الواضحة، نقوم بتشخيص موضوع معين، ونقترح بنوداً قانونية لمعالجته نظن أنها تضمن مصالح الجمهور، لكن يشعر الإنسان من ثَمَّ بالتردد تجاه ما إذا كانت بنود هذا القانون موافقة لحكم إسلامي ما..

«لقد طرح أمام المجلس قانون العمل على سبيل المثال، وبعد النقاش تم إقراره، لكن واجهتنا المعضلة ذاتها إن بعض بنوده تبدو غير مطابقة لأحكام شرعية معينة، واجهتنا ذات المعضلة حينما عرض على المجلس قانون الضريبة، وواجهتنا حينما عرض على المجلس قانون العقوبات الإدارية، وكذلك الحال عندما عرض قانون التعاونيات وقانون ملكية الأرض، وقانون المدارس الخاصة التجارية والخيرية وغيرها، إن كل

مسألة مهمة في البلد أدى طرحها إلى إثارة الجدل حول مطابقة القوانين المقترحة بشأنها لأحكام معينة في الشريعة أو فتاوى الفقهاء، وإذا لم يجر حل لهذه المعضلات والمفارقات فإن عملاً مهمًّا على صعيد أسْلَمة القوانين وتنظيم أوضاع البلد لن يمكن إنجازه»[(١)]

وإذا كان هذا هو حال إيران التي تعجّ بالعلماء المجتهدين، وفيها أكثر من حوزة علمية كبيرة، وفي طليعتها حوزة قم التي تضم الألوف من الفقهاء والعلماء، ومع ذلك تعاني قياداتها الدينية وتشكو من النقص والقصور في مجال البحوث والمعالجات العلمية المناسبة لإدارة شؤون الدولة والمجتمع، فكيف هو الحال في سائر المجتمعات الإسلامية؟

فلماذا لم يتوجّه العلماء لبحث هذه القضايا والمسائل الأساس، بينما يتنافسون في إصدار المجلدات وعقد بحوث الخارج حول مسائل أصولية وفقهية، أُشبعت وقُتلت بحثاً وتحقيقاً؟

علماً بأن هذه الثغرات والنواقص لم يكتشفها العلماء في إيران فجأة بعد انتصار الثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩م، بل كان الإمام الخميني ﵀، وقبل انتصار الثورة بعقد من الزمن، أي سنة ١٩٦٩م، يهيب العلماء لسدّ هذه الثغرات والنواقص، وينتقد جمود الفقهاء في بحث مسائل محدودة مكرورة، وتجاهلهم لاستنباط الأحكام المتعلقة بشؤون السلطة والمجتمع..

قال في أحد دروسه سنة ١٩٦٩م: «أحب أن أوجه أنظاركم إلى

---

(١) مجلة حوزة. تبليغات إسلامي حوزة علمية ـ قم عدد ٢٣.

التفاوت بين القرآن، وكتب الحديث من جهة، وبين الرسائل العملية من جهة أخرى، القرآن وكتب الحديث، وهما من أهم مصادر التشريع يمتازان عن الرسائل التي كتبها المجتهدون والفقهاء امتيازاً شديداً، لما في القرآن وكتب الحديث من الشمول لجميع جوانب الحياة، فالآيات ذات العلاقة بشؤون المجتمع تزيد أضعافاً عن الآيات ذات العلاقة بالعبادات خاصة. وفي أيّ كتاب من كتب الحديث الموسعة لا تكاد تجد أكثر من ثلاثة أبواب، أو أربعة تعنى بتنظيم عبادات الإنسان، وعلاقاته بربه، وأبواب يسيرة أخرى تدور في الأخلاق، وما سوى ذلك فذو علاقة قوية بالاجتماع، والاقتصاد، وحقوق الإنسان، والتدبير، وسياسية المجتمعات».

«نحن اكتفينا بمقدار يسير من الأحكام نبحث فيه خلفاً عن سلف، وطرحنا الكثير من مسائله وجزئياته ومفرداته، كثير من مسائله غريب علينا»[1].

فلماذا لم يقم الفقهاء بواجبهم في هذا المجال؟

إن بعضهم لا يرى أن ذلك من واجبه ومسؤولياته بسبب نظرته الضيقة المحدودة للإسلام، وبعضهم يخشى على نفسه من قمع الحاكمين وبطش الجاهلين إن اقترب من حريم السياسية، ولذلك فإن العلامة أبو الحسن الماوردي المتوفى عام ٥٤٠هـ، عندما وضع كتابه

---

(١) روح الله الموسوي الخميني، الحكومة الإسلامية، ص٩،٦٥.

القيم (الأحكام السلطانية) أوصى بعدم نشره إلا بعد وفاته.[١]

والشيخ النائيني (١٨٦٠ ـ ١٩٣٦م) بعدما طبع كتابه عن الحرية السياسية والشورى في النظام الإسلامي (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) قام محمد حسين بسحبه من الأسواق تلافياً للضغوط.[٢]

يقول الشيخ المنتظري:

«كان الفقهاء مشردين غالبا في شدة وتقية، فكانوا آئسين من رجوع الحكومة إليهم، ويرون كأنه بمنزلة أمر ممتنع. فكان البحث فيها وفي فروعها، وفي شرائط الحاكم، ونحو ذلك عندهم بحثاً لغواً وبلا فائدة. فلذلك لم يبحث فيها إلا بعض فقهائنا بنحو التطفل، وبالنسبة إلى التصرفات الجزئية، فترى الشيخ الأعظم الأنصاري قدس سره مثلاً يبحث فيها بحثاً ما في مكاسبه في مسألة التصرف في حال الطفل..»[٣].

وهناك ميدان آخر للتوعية السياسية المطلوبة من العلماء وهو توعية الأمة بالواقع السياسي المعيش، بتنبيهها إلى ما يحيط بها من أخطار وتحديات، وتوجيه الناس إلى مسؤولياتهم تجاه دينهم ومصلحتهم العامة.

إن بعض العلماء يشتد به الغضب حينما يرى انتهاكاً لحكم شرعي من

(١) فاروق عبد السلام. الإسلام والأحزاب السياسية، ١٩٧٨م، (القاهرة: مكتب قليوب للطبع والنشر)، ص٢٤.
(٢) محمد سعيد الطريحي. الموسم، مجلة فصلية، العدد الخامس، المجلد الثاني ١٩٩٠م، ص٤١.
(٣) حسين علي المنتظري. دراسات في ولاية الفقيه، ج ١ ص٤٢١.

قبل أحد أفراد المجتمع، كما لو رأى امرأة سافرة، أو شابًّا يلبس الذهب أو شخصاً يستمع إلى الغناء.. ويبادر لإلقاء الخطب وكتابة المقالات حول هذا الفساد والانحراف الخطير.. لكنه لا يحرك ساكناً ولا يجد نفسه معنياً إزاء الانحرافات السياسية وفساد الأنظمة والقوانين..

لقد ثارت ثائرة أحد علماء المسلمين في (تمبكتو) غرب أفريقيا حينما رأى انتشار شرب الشاي في أوساط المتدينين هناك حيث يسمونه (الأتاء أو الأتاي) وكان هذا العالم يرى حرمة تناول الشاي، فاجتهد في إعلان غضبه على شيوع هذه المعصية حتى نظم فتواه شعرا جاء فيه:

أتـاء شاربه يلهو كسكرانا	**ولا يزال من الضلال حيرانا**
أتاء لم يك من أفعال سيدنا	**وتالييه ولا من فعل عثمانا**
ولا علي والأصحاب كلهم	**والتابعين لهم عدلاً وإحسانا**
أتـاء بدعــة أقـــوام سيتورثهم	**من بعض مشربهم فقداً وخذلانا**[١]

كان ذلك في الوقت الذي زحف فيه الاحتلال الفرنسي على (تمبكتو) دون أن يتحدث ذلك العالم كلمة يبين فيها حكم وواجب المسلمين تجاه السيطرة الأجنبية !!

التصدي السياسي

إن من الواضح لكل دارس لتعاليم الإسـلام، وتاريخ قادته المصلحين، أن التصدي لإدارة شؤون الأمة وفق مناهج الدين، واجب

(١) فهمي هويدي، أزمة الوعي الديني، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، (صنعاء: دار الحكمة اليمانية)، ص١٠٠.

شرعي، ومسؤولية دينية.

وما يبديه بعض العلماء من أن دخول ميدان العمل السياسي يعني حب الزعامة وطلب الرئاسة، ويسبب التلوث بأعراض السياسية وأمراضها كالمكر والخداع، مما يخالف حالة الزهد والتقوى والقداسة التي يجب أن يحافظ عليها العالم الديني في شخصيته.

هذا الكلام ما هو إلا تبرير للتقاعس عن المسؤولية والقعود عن الواجب. وإلا فبماذا نفسر تصدي الأنبياء والأئمة ـ عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام ـ لقيادة المجتمع، وسعيهم لإصلاح شؤون الناس..

إن كل نبي أو رسول يبعثه الله سبحانه وتعالى هو مشروع قيادة وحكم للناس يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[١].

ويتحدث القرآن الحكيم عن نبي الله يوسف عليه السلام وهو يرشح نفسه لمنصب إدارة الاقتصاد في مصر، ويطلب من ملكها أن يوليه ذلك: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

قال العلامة الآلوسي في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه بالحق، إذا جهل أمره، وجواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل، وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان من يد الجائر أو الكافر، وربما يجب عليه

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٤.

(٢) سورة يوسف، آية: ٥٥.

الطلب إذا توقف على ولايته إقامة واجب مثلاً، وكان متعيناً لذلك، وما في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال: «قال رسول الله ﷺ: يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها» وارد في غير ما ذكر.[1]

ونقل القرآن الكريم عن لسان نبي الله سليمان عليه السلام دعاءه لله يطلب منه الحكم والسلطة: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[2].

ودعاء آخر يشكره القرآن على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[3].

وقد تكررت في سورة الشعراء آية ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ على لسان خمسة أنبياء: نوح، هود، صالح، لوط، شعيب عليهم السلام، حين كانوا يدعون الناس إلى عبادة الله وإلى طاعتهم والخضوع لهم كأنبياء وقادة لمجتمعاتهم.

وفي الحديث: «كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم» أي تتولى أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية[4].

والأئمة الهداة الذين نعتقد بإمامتهم ليسوا في عقيدتنا مجرد مفتين

---

(١) محمود الآلوسي. روح المعاني في تفسير القرآن، ج ١٣، (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ص٥.

(٢) سورة ص، آية: ٣٥.

(٣) سورة الشعراء، آية: ٨٣.

(٤) محمد بن مكرم ابن منظور. لسان العرب، ج٦، ١٤٠٥هـ، (قم: نشر أدب الحوزة) ص١٠٨.

ومرشدين، بل هم قادة كان يجب أن تخضع الأمة لهم، وأن يتسنموا موقع السلطة والحكم.

لذلك ورد في وصف الأئمة عليهم السلام: «أنتم ساسة العباد» وورد أيضاً «الإمام عارف بالسياسية»(١).

إن تصدي الأئمة والأولياء لمهام القيادة وشؤون السياسية ليس إلا استجابة للواجب الشرعى وقياماً بالمهمة الدينية، دون أن يشوبه أيّ غرض مصلحي، كما يقول الإمام علي في بيان سبب طلبه الحكم: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ ولا الْتِماسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ ولَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ ونُظْهِرَ الإِصْلاحَ فِي بِلادِكَ فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ»(٢).

وإذا ابتعد العلماء العدول عن ميدان السياسية، ولم يتحملوا مهام إدارة شؤون الحكم، فستكون النتيجة إتاحة الفرصة وفسح المجال لغير الكفوئين الصالحين من الجهلة والمنحرفين لكي يتسلطوا على رقاب العباد.

أما تحديد الدور السياسي للفقيه وكيفية تصديه للقيام به فذلك يخضع لطبيعة الظروف والأوضاع التي يعيشها المجتمع ولقدرة الفقيه وإمكاناته، فإذا تمكن الفقيه من التصدّي الكامل والمباشر لإدارة دفّة السياسة والحكم فهو المطلوب بالدرجة الأولى.

---

(١) فخر الدين الطريحي. مجمع البحرين، ج٤، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، (بيروت: مؤسسة الوفاء) ص٧٨.

(٢) الشريف الرضي. نهج البلاغة، خطبة رقم ١٣١.

وإن تعذر عليه ذلك واستطاع ممارسة دور التوجيه والإشراف على الحاكمين كانت تلك وظيفته.

وإذا لم تكن الظروف مهيّأةً لهذا المستوى من التصدّي، وأمكن للفقيه المشاركة في الحكم لإصلاح ما يمكن إصلاحه، تعيّن ذلك ما لم تكن له مضاعفات وأخطار غير محتملة.

وأدنى درجة هي القيام بدور النصيحة للحاكمين، وإلفات نظرهم إلى الانحرافات التي تحدث، والتأثير عليهم بالمقدار الممكن.

وإذا كانت الأوضاع التي تعيشها الأمة متردّية سياسياً وبلغ الانحراف والظلم بالحاكمين مداه، بحيث لا يتمكن العلماء من القيام بأي دور أو تأثير سياسي إيجابي، فلا بدّ حينئذٍ من التصدّي للمعارضة، بأن يعلن الفقيه موقفه المعارض ويحمل راية الثورة والجهاد.

وحيث لا تكون الظروف مساعدة والأجواء مهيّأة فعليه التخطيط والإعداد لصنع الأرضية المناسبة لتحمل واجب المعارضة.

تلك هي أهم الصور والخيارات التي يمكن للفقيه أن يمارس عبرها دوره السياسي، ويتصدّى لمسؤوليته القيادية الخطيرة.

وبشيء من التوضيح يمكن الحديث هنا عن كل صورة من تلك الصورة:

الفقيه الحاكم

إنما تتوفر الشرعية لأي حاكم بانتخاب الأمة له ورضاها بقيادته بعد توفر الصفات المحدّدة شرعاً فيه كالعلم والعدالة والكفاءة.

من هنا، فإن على الأمة أن تسلّم أزمة أمورها للفقهاء العدول الكفوئين للقيادة، لما ورد من نصوص دينية تشير إلى أحقيتهم بمنصب الحكم والسلطة، وبغض النظر عن هذه النصوص وخلاف العلماء حول مدى دلالتها على ولاية الفقهاء، ومساحة تلك الولاية وحدودها، فإن الأمة إذا كانت مخيرة بين قيادة الفقيه العادل الكفؤ وقيادة غيره ممن يفتقد تلك الصفحات، فإن وجدانها الديني سيدفعها لانتخاب قيادة الفقيه ما دام كفوءاً مقتدراً.

وعلى الفقيه من جهة أخرى أن يهيأ نفسه للقيام بأعباء هذا المنصب وأن يستعد لأداء هذا الدور بترشيح نفسه وبالسعي نحو موقع السلطة والحكم، يقول المرجع الديني السيد محمد الشيرازي ﷷ: «الظاهر استحباب السعي من العالم الجامع للشرائط لنيل منصب الرئاسة في الدولة الإسلامية، بقصد إقامة الأحكام إذا كان يرى نفسه أكفأ من غيره، أو أراد طلب الثواب، قال سبحانه: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ..﴾ وقال علي ﷺ: «لَوْ لا حُضُورُ الْحَاضِرِ وقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ ومَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ إلا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ ولا سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا» مما يدل على وجوب القيام بالأمر مع المكنة، فإن كان واحداً وجب عليه عيناً، وإن كان متعدداً وجب عليه كفاية، فإن في ذلك أسوة بالأنبياء والأئمة حيث طلبوا الحكم، بالإضافة إلى أنه مقدمة إقامة الدين، ونشر العلم، وقطع دابر

الظلمة قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ سورة الشورى، الآية١٣ »[١].

وفي تاريخنا الإسلامي القديم والحديث صفحات مشرقة لنماذج رائعة من الفقهاء الذين تصدوا لموقع القيادة والحكم.

فمن التاريخ القديم نذكر مؤسس الدولة الزيدية في اليمن الفقيه العلوي (يحيى بن الحسين بن القاسم)، الذي يتصل نسبه بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (ولد سنة ٢٤٥هـ وتوفي سنة ٢٩٨هـ). كان هذا الفقيه العلوي مقيماً في الحجاز بقرية تبعد عن المدينة المنورة ٧٠ كيلومتراً تقريباً اسمها (الفرع).

فقدمت عليه وفود من أهل اليمن، تدعوه للانتقال إليهم والتصدّي لقيادتهم، رجاء أن يخلصهم مما كانوا يعانونه من فتن داخلية ومشاكل وأزمات، فاستجاب لطلبهم وغادر الحجاز إلى اليمن، فبايعوه إماماً شرعيّاً وحلفوا له على الطاعة والمناصرة، والقيام بأمر الله، وأعلى منهجه السياسي للحكم قائلاً في خطبة له: «أيها الناس أدعوكم إلى ما أمر الله أن أدعوكم إليه، إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فما جاءنا به الكتاب اتبعناه، وما نهانا عنه اجتنبناه، وإلى أن نأمر نحن وأنتم بالمعروف ونفعله، وننهى نحن وأنتم عن المنكر جاهدين ونتركه» ثم شرط على نفسه شروطاً فقال:

«أيها الناس، وبعد فإني اشترط لكم أربعاً على نفسي: الحكم بكتاب

---

(١) محمد الشيرازي. الفقه، الحكم في الإسلام، الطبعة الثانية ١٩٨٩م، (بيروت: دار العلوم) ص٦٢.

الله وسنة نبيه، والأثرة لكم على نفسي فيما جعله الله بيني وبينكم أوثركم فلا أتفضل عليكم، وأقدمكم عند العطاء قبلي، وأتقدم أمامكم عند لقاء عدوي وعدوكم بنفسي.

وأشترط لنفسي عليكم اثنين: النصيحة لله سبحانه ولي في السر والعلانية، والطاعة لأمري على كل حالاتكم ما أطعت الله، فإن خالفت طاعة الله فلا طاعة لي عليكم، وإن ملت أو عدلت عن كتاب الله وسنة رسوله فلا حجة لي عليكم. ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾» كان ذلك سنة ٢٨٤هـ.

وعرف في اليمن بالإمام الهادي، ووحّد الشعب اليمني بعدما كان يعانى من التناحر القبلي، وضربت النقود الذهبية والفضية باسمه وحددت المكاييل والمقاييس.. وقاد عدة معارك عسكرية ضد القرامطة وسائر الفئات المنحرفة والمتمردة. واستمرت الدولة التي شيّد أركانها في اليمن عدة قرون حسب نظام الإمامة في المذهب الزيدي إلى منتصف هذا القرن.[1]

ومن النماذج في تاريخنا الماضي القريب فقيه السودان السيد محمد بن أحمد المهدي (١٢٦٠ ـ ١٣٠٢هـ/ ١٨٤٤ ـ ١٨٨٥م) وينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي عليه السلام.

فقد ثار على واقع الجهل والتخلف والانحراف في بلاده، والتفّ

---

(١) علي الفضيل شرف الدين. الزيدية نظرية وتطبيق، الطبعة الأولى ١٩٨٥م، ص١٤٤ ـ ١٥٧.

الشعب حوله، وأقام دولته على أساس تطبيق الإسلام، وفشلت جهود الاستعمار البريطاني في استمالته وفي مقاومته عسكرياً. «وأقام في المنطقة التي امتد إليها نفوذه نظاماً إسلامياً، وطبّق تعاليم الإسلام في جميع نواحي الحياة، فعين قضاة من صفوة العلماء الأتقياء، ونواباً عنه في الأقاليم ممن يثق بصلاحهم وعلمهم، وعهد إليهم مباشرة القضاء والأحكام والفصل بين الناس. ونظم الشؤون المالية، فأنشأ بيت المال وعين جباة لجمع الزكاة، وقسم الغنائم كما تقضي الشريعة الإسلامية، ومنع حيازة الأرض لأنها لا تملك، بل هي محوزة لبيت المال، وجعل بيت المال مورداً لرزق المسلمين، يعطي كلا منهم بمقدار حاجته هو وعائلته ورجع في أحكامه إلى عهد الإسلام الأول فلم يتقيد بمذهب من المذاهب الأربعة..»[1].

وفي عصرنا الحديث تتألق الثورة الإسلامية في إيران التي قادها الإمام الخميني ﵀ كأروع نموذج لتصدي الفقيه لشؤون الأمة وممارسته لدور القيادة الناجحة.. فقد أسقط بثورته المباركة أعتى حكومة استبدادية في المنطقة، وقاد أعظم حركة جماهيرية في التاريخ، وأسس أول جمهورية إسلامية عصرية، تعتمد على رأي الشعب، حيث دعا الشعب بعد انتصار الثورة إلى الاستفتاء على نظام الجمهورية وإلى انتخاب ممثلين خبراء عنه ليضعوا دستوراً للحكم في البلاد على أساس الإسلام، ثم عرض الدستور على الشعب للتصويت والاستفتاء، وأشاد هيكلية

---

(١) فتحي يكن. الموسوعة الحركية، ج١، الطبعة الثانية (عمان: دار البشير)، ص٢٠٩.

الحكم انطلاقاً من الدستور الذي وضعه الفقهاء والخبراء ووافق عليه الشعب، كما واجه الفقيه الخميني الاعتداءات الخارجية والمؤامرات الداخلية بكل حزم وصمود، حتى وطّد أركان الحكم الإسلامي، إلى أن اختاره الله إلى جواره بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٤٠٩هـ، فاختار الفقهاء في مجلس الخبراء بعده تلميذه آية الله السيد علي الخامنئي حفظه الله لمواصلة المسيرة.

الإشراف على الحكم

حينما لا تساعد الفقيه صحته الجسمية أو كفاءته وخبرته العملية، على التصدي المباشر لإدارة دفة الحكم، أو حينما لا تكون الظروف السياسية والاجتماعية مناسبة لذلك، فإن أمكن للفقيه أن يمارس دور الإشراف على الحكم وتوجيهه فهو الخيار المطلوب حيث يأخذ الفقيه دور المراقبة والتسديد لخطوات الحاكم باتجاه تنفيذ أحكام الشرع وحماية مصالح الشعب.

وكنموذج لهذه الحالة يمكن قراءة دور العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (١٠٣٧ ـ ١١١٠هـ/ ١٦٢٧ ـ ١٦٩٩م) في التعامل مع الحكام الصفويين في إيران. والمجلسي عالم مشهور بكتاباته الموسوعية المعروفة وأبرزها (بحار الأنوار) والذي طبع في أكثر من (١١٠) مجلدات. «فكان يتمتع بحظوة عظيمة لدى الشاه ـ الشاه حسين الصفوي (١٦٩٤ ـ ١٧٠٩م) ـ ولدى حاشيته، فقد كان نفوذه واسعاً في إيران والعراق وما جاورهما من المناطق لا بوصفه المرجع الأعلى

فقط، بل لعلمه وتقواه وشخصيته ولمؤلفاته العديدة، ومنحه الشاه لقب (ملاباشي) أي شيخ أو رئيس العلماء، وكان سنداً كبيراً دينياً قوياً للحكم الصفوي»[١].

ونموذج آخر هو الفقيه الشيخ جعفر الكبير النجفي (١١٥٤ ـ ١٢٢٧هـ) صاحب (كاشف الغطاء) وهو كتاب قيّم في الفقه أصبح مؤلفه يعرف به (كاشف الغطاء) الذي كان المرجع الديني الأعلى في عصره للمسلمين في العراق وإيران، وقد قام بدور التوجيه والإشراف على مسار الحكم القاجاري في إيران وخاصة في عهد فتح علي شاه (١٧٩٧ ـ ١٨٣٤م/ ١٢١٢ ـ ١٢٥٠هـ) وقد بلغ مستوى العلاقة بين الفقيه كاشف الغطاء والحاكم فتح علي شاه أن أجاز الفقيه للحاكم ممارسة الحكم وإدارة شؤون الحرب إجازة خطية أثبتها في كتابه (كشف الغطاء) ضمن باب الجهاد.[٢]

المشاركة في الحكم

حتى وإن لم تكن الحكومة قائمة على أساس ديني، أولم يكن مسارها مطابقاً للشرع والعدل. فإنه إذا سنحت الفرصة للفقيه للمشاركة في هذه الحكومة القائمة بتولي بعض المناصب والوزارات أو إدارة بعض الأجهزة والمؤسسات من أجل تطبيق الممكن من أحكام الله،

(١) سعد الأنصاري. الفقهاء حكام على الملوك، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، (دار الهدى) صفحة٣٣ ـ ٣٤.

(٢) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة ج٤،صفحة١٠٠ .

وتقليل الانحرافات والفساد في السلطة، والدفاع عن حرمات الدين وحقوق الناس، ولم تكن في المشاركة مضاعفات وأخطار تفوق تلك المكاسب الممكنة، فإن المشاركة في الحكم من قبل الفقيه قد تكون مفيدة ومطلوبة.

وقد ذكر الباري سبحانه وتعالى في القرآن الكريم مشاركة نبي الله يوسف في حكومة مصر وكان ملكها كافراً.

كما تحدث القرآن الحكيم عن دور مؤمن آل فرعون في بلاط فرعون ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾[١].

ويمكن اعتبار علي بن يقطين البغدادي (١٢٤ ـ ١٨٢هـ)، من أبرز وأوضح النماذج التاريخية للقيام بدور المشاركة في الحكم. فقد كان من عيون أهل العلم ومن فضلاء عصره، وتلميذاً وثيق الصلة بالإمام موسى بن جعفر الكاظم.

تولى علي بن يقطين منصب الوزير الأهم في عهد الخليفتين المهدي وهارون الرشيد العباسيين.

ومعلوم مدى فساد وانحراف الحكم العباسي، لكن المصلحة العامة اقتضت من على بن يقطين تولّي ذلك المنصب، وقد ضاق صدره بمنصبه عدّة مرات، وأراد الاستقالة، لكن الإمام موسى الكاظم نهاه عن ذلك، وطلب منه الاستمرار في موقعه وقال له: «لا تفعل فإن لنا بك أنساً، ولإخوانك بك عزاً، وعسى الله أن يجبر بك كسيراً، أو يكسر

---

(١) سورة غافر، آية: ٢٨.

بك نائرة المخالفين عن أوليائه، يا علي، كفارة أعمالكم الإحسان إلى إخوانكم...»، وينقل التاريخ مواقف عديدة للإمام موسى الكاظم في دعم وتعزيز موقع علي بن يقطين.[١]

وفي العصر الحديث هناك نماذج عديدة من الفقهاء المصلحين الذين شاركوا في الحكومات القائمة في مناطقهم خدمة للمصلحة الدينية والاجتماعية العامة، ونشير هنا إلى نموذج واحد هو الفقيه السيد هبة الدين الشهرستاني (١٣٠١ ـ ١٣٨٦هـ/ ١٨٨٤ ـ ١٩٦٧م) وهو من فضلاء علماء العراق في عصره، فقد كان فقيهاً مصلحاً مجاهداً، يشارك في معركة الدفاع ضد الاحتلال الروسي لآذربيجان الإيرانية، كما قام بدور مهمّ في مقاومة الاحتلال البريطاني للعراق في ثورة العشرين، وساهم أيضاً في الحركة الدستورية الإيرانية ضد الاستبداد.

وقد تقلد منصب وزارة المعارف في العراق أيام الحكم الملكي سنة ١٩٢١م، حيث وجد أن تولّي وزارة المعارف سيتيح له إسداء خدمات جيدة للمجتمع العراقي، وإبعاد بعض جوانب الغزو الفكري الغربي، وتربية النشء الجديد تربية إسلامية صحيحة. ودخل الوزارة ليحارب على جبهتين، جبهة استقلال الوزارة عن الإرادة البريطانية، وجبهة بناء أسس صحيحة للتعليم في العراق.

وعلى الجبهة الأولى حارب المناهج الاستعمارية، ورفض إحلال

---

(١) باقر شريف القرشي. حياة الإمام موسى بن جعفر، الطبعة الثانية ١٩٧٠م، ج ٢صفحة٢٨٤ ـ ٢٩١.

الرموز والشعارات الانجليزية محل الشعارات الوطنية والإسلامية. بل وأقدم على عمل جريء جدًّا هو فصل المستشار البريطاني (كابتن فاول) من الوزارة.

وفي الجبهة الثانية قام بعدة انجازات في مجال بناء المدارس، كما قام بتأسيس مجالس المعارف في مراكز المحافظات، وسن لهذه المجالس قانوناً صدقه مجلس الوزراء. ووزّع منشوراً على الأهالي يطلب منهم التبرع للمشاريع التعليمية فجمع من ذلك (٣٠٠) ألف روبية، كما قام بإرسال أول بعثة علمية إلى خارج العراق، وأمر بأداء الصلاة جماعة في دار المعلمين. كل ذلك في فترة محدودة تقرب من سنة واحدة فقط[١].

النصيحة للحاكم

ترتبط قرارات الحاكم وتصرفاته بأوضاع الأمة ومستقبلها، وأي خطأ أو انحراف يصدر عنه يضر بمصلحة الأمة ككل، ويتنافى مع قيم الدين وأهدافه. وعلى المسلمين وفي طليعتهم العلماء، السعي بأقصى حدٍّ ممكن للتأثير على قرارات الحاكم لتكون مطابقة لأحكام الإسلام ومصلحة الأمة..

وقد يكون للحوار والنصيحة والموعظة أثر محتمل حتى على الحاكمين الظالمين والفاسدين، لذلك أمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام بتوجيه الخطاب اللّين الهادئ لفرعون في بداية الأمر، قال تعالى: ﴿اذْهَبَا

---

(١) عبد الكريم آل نجف. السيد هبة الدين الشهرستاني طليعة التحديث الإسلامي، مجلة التوحيد، العدد ٦٨، السنة العاشرة، تشرين الثاني ١٩٩٣م،صفحة ٤٠ ـ ٥٠.

إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[١].

ونصيحة الحاكم مطلوبة، سواء كان الحاكم شرعياً صالحاً أم غير ذلك.

وفي حياة أئمة أهل البيت ﰈ، والعلماء الصالحين دروساً وعبراً ومواقف مشرقة في هذا المجال.

فالإمام علي ابن أبي طالب ﰉ كان يبذل رأيه ويقدم نصيحته للخلفاء، وكانوا يرون في مشورته ونصيحته السداد والخير، وقد ورد عن الخليفة عمر عبارات مختلفة تحكي اعتزازه برأي الإمام علي واعتماده عليه، كما ينقل ابن عساكر الشافعي عن سعيد بن المسيب قوله: قال عمر بن الخطاب: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن علي بن أبي طالب. وعن أبي سعيد الخدري قال عمر بن الخطاب: لا بقيت في قوم لست فيهم أبا حسن[٢].

وقد أثبت الشريف الرضي ﭬ في نهج البلاغة بعض نصائح الإمام علي ومشورته التي قدمها للخليفة عمر، حينما فكر الخليفة في الشخوص بنفسه لقتال الفرس، وشجعه على ذلك بعض الصحابة، لكن الإمام عليًّا أشار عليه بالبقاء في عاصمة الخلافة، والاكتفاء ببعث الجيش لقتالهم قائلاً: «ومَكَانُ الْقَيِّمِ بِالأمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ ويَضُمُّهُ فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وذَهَبَ ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ

(١) سورة طه، الآيتان: ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) الحافظ علي بن الحسن بن عساكر. ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م، تحقيق محمد باقر المحمودي، ج٣ صفحة ٥١ ـ ٥٣.

أَبداً والْعَرَبُ الْيَوْمَ وإِنْ كَانُوا قَلِيلاً فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالإِسْلامِ عَزِيزُونَ بِالاجْتِمَاعِ فَكُنْ قُطْباً واسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ وأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هَذِهِ الأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وأَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ إِنَّ الأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا هَذَا أَصْلُ الْعَرَبِ فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ وطَمَعِهِمْ فِيكَ..»[١].

وأيضاً: روي أنه ذكر عند الخليفة عمر بن الخطاب حلي الكعبة وكثرته فقال قوم: لو أخذته فجهزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر، وما تصنع الكعبة بالحلي؟ فهمّ عمر بذلك. فتدخل الإمام علي ناصحاً بقوله: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ والأَمْوَالُ أَرْبَعَةٌ أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فَقَسَّمَهَا بَيْنَ الْوَرَثَةِ فِي الْفَرَائِضِ والْفَيْءُ فَقَسَّمَهُ عَلَى مُسْتَحِقِّيهِ والْخُمُسُ فَوَضَعَهُ اللَّهُ حَيْثُ وَضَعَهُ والصَّدَقَاتُ فَجَعَلَهَا اللَّهُ حَيْثُ جَعَلَهَا وكَانَ حَلْيُ الْكَعْبَةِ فِيهَا يَوْمَئِذٍ فَتَرَكَهُ اللَّهُ عَلَى حَالِهِ ولَمْ يَتْرُكْهُ نِسْيَاناً ولَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ مَكَاناً فَأَقِرَّهُ حَيْثُ أَقَرَّهُ اللَّهُ ورَسُولُهُ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَوْلاكَ لافْتَضَحْنَا وتَرَكَ الْحَلْيَ بِحَالِهِ»[٢].

وأما نصائحه للخليفة عثمان عندما حدثت المشاكل في عهده والتي انتهت إلى قتله فعديدة تناقلها المؤرخون كقوله عليه السلام له: «اعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله إمام عادل هُدي وهدى، فأقام سنة معلومة، وأمات

---

(١) الشريف الرضي. نهج البلاغة خطبة رقم ١٤٦.

(٢) الشريف الرضي. نهج البلاغة، قصار الحكم، رقم ٢٧٠.

بدعة متروكة، فو الله إن كلاً لبيّن، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وأن البدع لقائمة لها أعلام. وأن شرّ الناس عند الله إمام جائر ضلّ وأضلّ، فأمات سنّة معلومة، وأحيا بدعة متروكة، وأني أحذّرك الله وسطواته ونقماته، فإن عذابه شديد أليم، وأحذّرك أن تكون إمام هذه الأمة الذي يُقتل فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة...».[1]

وفي تاريخنا المعاصر يمكن الإشارة إلى شخصية العالم المصلح السيد جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) والذي كان يستثمر مكانته واحترامه لدى حكام البلدان الإسلامية بتقديم النصيحة لهم، وتوجيههم نحو الاستقلال عن الهيمنة الأجنبية، وتحكيم العدل في سياستهم الداخلية، والنهوض بالأمة من وهدة التخلف والانحطاط.

ففي أفغانستان كان يجتهد في نصح حاكمها الأمير دوست محمد خان وبعده الأمير شير علي خان ثم الأمير محمد أعظم خان.. وعندما حلّ بمصر واحتفى به حاكمها إسماعيل باشا خديوي لم يأل جهداً في تقديم نصحه وطرح آرائه الإصلاحية للحاكم ووزرائه.. واستعان بالصحافة لنشر أفكاره الإصلاحية بأسماء مستعارة.. ولما تولى حكم مصر الخديوي توفيق بن إسماعيل باشا واصل السيد جمال الدين دوره في النصح للحاكم لكن الخديوي توفيق لم يتحمل نصائحه ونشاطه التوعوي في أوساط الشعب بل اتهمه بالتحريض على الحكم قائلاً له:

(١) عز الدين أبي الحسن الشيباني ابن الأثير. الكامل في التاريخ ج٣، ١٩٧٩م، (بيروت : دار الصادر)صفحة١٥١.

«إن دروسكم وأقوالكم المهيجة ستؤدي بالشعب والبلاد في تهلكة»!!

فرد عليه جمال الدين قائلاً: «ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص: أن الشعب المصري كسائر شعوب العالم لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكن هذا لا يمنع من وجود العالم والعاقل أيضاً، فبالمنظار الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر به لسموكم، وإذا قبلتم نصحي وأسرعتم لإشراك الأمة، في حكم البلاد فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة، تسنّ القوانين فإن ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم».

وعلى أثر هذه المواجهة أمر الخديوي توفيق بإخراج السيد جمال الدين من مصر.

وهكذا كان منهجه في الأستانة، مقر الخلافة العثمانية، عندما ذهب إليها بدعوة ملحة من السلطان عبد الحميد، فكان السيد جمال الدين يكرر عليه النصائح، والسلطان يظهر له القبول غالباً. يقول السيد جمال الدين: «رأيت من السلطان ارتياحاً لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستوري»، وأن الإسلام أول من عمل به في سلطانه، أي الحكم الشوري وذلك عملاً بحكم النص ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

وكانت نصائحه بعض الأحيان للسلطان شديدة اللهجة كقوله له مرة: «جلالة السلطان: مللت من تعاطينا الشكاية، وَمَنْ غيرك صاحب الأمر؟ خذ بحزم جدّك محمود، وأقصِ الخائنين من خاصتك الذين يبعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا، والعمال في الولايات،

وهم صنائعهم وجباة جيوبهم الخاصة. خفف الحجّاب عندك، واظهر للملأ ظهوراً يقطع من الخائنين الظهور. وأعتقد أن نعم الحارس الأجل ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(سورة الأعراف، الآية٣٣)»[١].

إن اللقاء مع الحاكم من قبل العلماء لتذكيره بمراعاة قوانين الإسلام ولحثه على احترام حقوق المواطنين، أو كتابة الرسائل والبرقيات، وإرسال الوفود والمندوبين إليه بهذا الصدد، قد يكون وسيلة مؤثرة أو محتملة التأثير. طبعاً مع أخذ مجمل الظروف والأوضاع بعين الاعتبار، ودراسة الموقف لاختيار أنسب الوسائل والأساليب.

والمؤسف أن الكثير من العلماء يترّددون في القيام بهذا الدور الإصلاحي الهادئ، انطلاقاً من فكرة عدم التدخل في الشؤون السياسية، أو تخوّفاً من أضرار محتملة على أشخاصهم ومكانتهم، أو لعدم الاهتمام بالمصلحة العامة.

موقف المعارضة

حين تتوغّل السلطة السياسية في الانحراف والفساد، فلا تُعنى بقيم الدين وأحكامه، ولا تراعي حقوق الناس ومصالحهم، وحين لا تجدي أساليب النصيحة والوعظ، فإنه لا يصحّ للأمة وفي طليعتها العلماء، السكوت على واقع الظلم والفساد والانحراف.

---

(١) الدكتور علي عبد الحليم محمود. جمال الدين الأفغاني، (الرياض: دار عكاظ للطباعة والنشر) صفحة١٩٧ ـ ٢٦٣.

فلا بدّ من التخطيط والإعداد لمعارضة الطغيان، ومسؤولية العلماء هي التصدّي لإنقاذ الدين والأمة.

وذلك من أجلى مصاديق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. روى الطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل أن الحسين بن علي عليهما السلام خطب الناس أثناء سيره إلى العراق، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله».[(١)]

وتاريخنا الإسلامي زاخر بحركات المعارضة وثورات الإصلاح التي قادها أعلام الأمة وفقهاؤها، ضد الانحرافات السياسية، كثورة الإمام الحسين بن علي سبط رسول الله سنة ٦١ هـ، وثورة حفيده زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢١ هـ، على الحكم الأموي، وثورة محمد بن عبد الله، الملقب بالنفس الزكية سنة ١٤٥هـ، وثورة الحسين بن علي شهيد فخ سنة ١٦٩هـ على العباسيين..

وتنتشر الآن الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، يقودها علماء أفاضل يطالبون بتطبيق شرع الله، ورفض هيمنة أعداء الله، وإجراء العدل بين الناس.

---

(١) محمد بن جرير الطبري. تاريخ الأمم والملوك، ج٤، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات) صفحة٣٠٤.

والحديث عن وسائل المعارضة وأساليبها وبرامجها يحتاج إلى أبحاث تفصيلية موسّعة.

ذلك أن الظروف الزمانية والمكانية لها دخل في تحديد الأساليب والوسائل. فكل ظرف سياسي ووضع اجتماعي يستلزم نمطاً معيّناً من التحرك والعمل.

ودور العلماء هو التصدي لقيادة المعارضة، حينما تكون مطلوبة لترشيدها وتوجيهها، وفق تعاليم الإسلام ومقتضيات الظروف والمصلحة العامة.

بالطبع إن التصدّي لهذه المهمة الخطيرة يعني الاستعداد للتضحية وتحمل الآلام والمصاعب، من سجن وتعذيب وتشريد وقتل.. والعالم بدين الله، والعارف بعظمة الله، لا يبخل بنفسه على البذل في سبيل الله، ولقد سجّل المجاهدون من علماء الإسلام، في الماضي والحاضر، بنضالهم ودمائهم الزكية أروع مواقف الفداء والتضحية، دفاعاً عن قيم الدين ومصلحة الأمة.

الفصل الرابع

علماء الدّين ومسؤوليّة الوحدة

مدخل

الوحدة أصل ثابت من أصول مقاصد الإسلام، وهدف أساس للأمة الإسلامية التي أرادها الله أمة واحدة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[1] والاختلاف والنزاع حالة مضادة ومناقضة لأساس الدين وغايته يقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾[2] ويقول تعالى:﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[3].

لسنا بحاجة للوقوف طويلاً، للحديث حول ضرورة الوحدة، وأهميتها، وموقعيتها، على المستوى الديني، فذلك أمر مفروغ منه، واضح لدى كل مسلم واعٍ.

لكن، بالنظر إلى الواقع التجزيئي الذي تعيشه الأمة، فإن السؤال

---

(١) سورة الأنبياء، آية ٩٢.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٠٣.

(٣)سورة الأنفال، آية ٤٦.

الذي يفرض نفسه بإلحاح هو: ما هي الخطوة الأولى في طريق الوحدة؟

فمنذ أكثر من نصف قرن، كان هناك من يراهن على دور الأنظمة والحكومات، في العالم العربي والإسلامي، لكي تصنع واقع الوحدة، من خلال الأطر والمؤسسات الرسمية، وعبر العلاقات والتحالفات الثنائية بينها.. وكانت جماهير الأمة تهلّل فرحاً، لكل مؤسسة رسمية، ترفع راية الوحدة، أو إطار إقليمي يتبنى التعاون والتنسيق، أو أيّ صيغة تبشّر بتوجه وحدوي، ولو بين دولتين وقطرين من أقطار المسلمين.

لكن هذا الرهان باء بالفشل والخيبة، وتأكد لجماهير الأمة، أن الأنظمة والحاكمين، لا يتوقع تحقيق وحدة الأمة على أيديهم.

فأكثر هذه الأنظمة تدور ضمن أفلاك دولية، لا ترى أن من مصلحتها وحدة الأمة، بل تعمل لإبقائها مجزأة ممزقة.

واغلب الحاكمين، تسيطر عليهم نزعة التسلط والتفرد، وليسوا مخلصين لمصلحة الأمة، ولا جادّين في تحقيق آمالها وتطلعاتها، كما لا يمتلكون مستوى من الوعي السياسي الحضاري الذي يدفعهم للتعاون فيما بينهم.

من هنا، أصبحت المؤسسات الرسمية ذات الطابع الوحدوي هياكل شكلية، وبقيت الأطر دون محتوى ومضمون حقيقي، وانتهت أغلب مشاريع الوحدة إلى التفكك والخلاف والنزاع.

وهناك من يرى أن الوحدة يجب أن تبدأ من جماهير الأمة، وذلك بتعبئة الجمهور، ودفعه لفرض الوحدة، وأن يمارس الناس السلوك

الوحدوي، ويجسدون عملية الوحدة في تعاملهم الاجتماعي.

وإذا ما أصبحت الوحدة مطلباً للناس، وتحركوا لتحقيقه، فإن إرادتهم ستنتصر على القوى والعناصر المناوئة والمضادة للتوجه الوحدوي.

ولكن، كيف يمكن تعبئة الناس باتجاه الوحدة، وهناك واقع من التمايز والتنوع القومي والعرقي والمذهبي والإقليمي والسياسي والطبقي؟.. وكل لون من ألوان التمايز، قد صنع له فلسفة وتنظيراً، وأشاد عليها مواقف وهياكل ومؤسسات، بهدف الدفاع عن الذات، والخصائص المميزة، في مواجهة ما يعتبره تهديداً لتلك الخصائص ومحاولة لفرض الذوبان وتجاوز الحقوق.

كانت الأمة في سالف عصورها الأولى، تعيش حالة حضارية ونموذجية للوحدة حيث انصهرت في بوتقة الإسلام شعوب مختلفة ومتمايزة عرقياً وقومياً وقبائلياً، ومع انبثاق مدارس اجتهادية متعددة دينياً وسياسياً إلا أن الأجواء العامة للأمة كانت تنعم بمشاعر الوحدة، وكانت الأنظمة والقوانين السياسية والاجتماعية قائمة على هذا الأساس.

ومع حصول الكثير من الانحرافات السياسية والإدارية على الصعيد الرسمي من قبل الحاكمين إلا أن الحالة الشعبية كانت تعيش واقع الوحدة والاندماج ولم يكن هناك شعور بالتناقض والتعارض ما بين الخصائص والميزات العرقية والقومية، التي لم تكن ممارستها تثير أية حساسية، ولا كان يترتب عليها أيّ اثر، في الحقوق العامة،

يميز بين ذوي تلك الانتماءات وما بين الانتماء إلى الكيان الواحد للأمة الواحدة.

لكن المؤسف والمؤلم هو ما حصل في هذه العصور المتأخرة، من حصول زخم من المشاعر والأحاسيس العميقة في نفوس أبناء الأمة باتجاه تأكيد جوانب التمايز القومي والعرقي والطائفي والمذهبي.

مما يجعل عملية التوعية والتعبئة باتجاه الوحدة تحتاج إلى جهد خارق وبرمجة دقيقة لكي تتجاوز حالة الشعار والمشاعر، وتتحول إلى طروحات فكرية وبرامج عملية تعالج المخاوف والتحفظات وتعطي الاطمئنان لمختلف الجهات، بأن الوحدة لا تعني مصادرة خصائصها وميزاتها، بل تفسح لها المجال لتشارك في بناء الكيان الشامل، ولتتكامل مع سائر الجهات والأطراف.

ومشكلة أخرى نواجهها في طريق تعبئة جمهور الأمة باتجاه الوحدة، هي وجود الدعاوى والمدعين، من حاملي رايات الوحدة، ورافعي شعاراتها، من حكام وأحزاب، ومراكز قوى وفاعليات، في الوقت الذي تجيّر فيه هذه الدعوات وتستثمر لأغراض مصلحية مناقضة للهدف الوحدوي، فكم من تجزئة وتفرقة ونزاع جرى تحت رايات الوحدة وعلى أنغام موسيقى شعاراتها؟ مما احدث شيئاً من اليأس وردة الفعل والتشكيك في الدعوات الوحدوية لدى قطاع من جماهير الأمة.

كما يحصل الالتباس والخلط، فيصعب على الناس التمييز بين

الدعوات الصادقة والأخرى الزائفة...

دور العلماء

يبدو أن علماء الدين هم الجهة الأكثر تأهيلاً وقدرة على شق طريق الوحدة أمام الأمة وذلك للأسباب التالية:

أولاً: لما يفترض فيهم من أنهم الأكثر تمسكاً بتعاليم الإسلام، والأحرص على تطبيق مبادئه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].. والوحدة كمبدأ ونظام ينبثق من عمق الدين عقيدة وتشريعاً، لا بدّ أن يحتضنها العلماء، ويهتمون بتنفيذ أوامر الله حولها.

ثانياً: والعلماء مدعوّون ومطالبون من قبل الله تعالى، قبل أيّ جهة أخرى، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأيّ معروف أكبر من الوحدة وأيّ منكر أخطر من التجزئة والتفرقة؟

ثالثاً: وللعلماء رصيد كبير من الثقة في نفوس الناس، مما يجعل دعوتهم أكثر مقبولية، ويمكّنهم من التغلّب على حالات اليأس والتشكيك والالتباس، وأن يتعاطى الجمهور مع دعوتهم بثقة وجدّية.

نشأة الاختلاف في الأمم السابقة

لأهمية موضوع وحدة الأمـة، فإن القرآن الكريم يتناوله في العشرات من الآيات من الآيات والسور، ويعالجه من زوايا متعددة وجوانب مختلفة.

---

(١) سورة فاطر، آية ٢٨.

فبعض الآيات الكريمة تؤكد أهمية الوحدة وضرورتها في حياة الأمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾[٢].

وآيات أُخر في القرآن الكريم تبين أضرار وأخطار الفرقة والخلاف وتحذّر منها. يقول تعالى: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٣].

بينما تشير مجموعة من الآيـات القرآنية إلى الجهات الداخلية والخارجية، التي تعمل على تمزيق المجتمع، وتغذّي حالة النزاع والتمزق في الأمة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾[٥] والمقصود في الآية الكريمة المنافقون أو الطابور الخامس.

ومن المسارات التي سلكها القرآن الحكيم في تناول موضوع الوحدة التوجيه إلى قراءة أحوال الأمم السابقة في هذا المجال، وأخذ العبر والدروس من التحولات السلبية، التي حصلت لها، وعصفت بوحدتها وتماسكها، وجعلتها عرضة للتفرق والتمزق.

فمن أيّ وسط بدأ الخلاف في الأمم السابقة؟ ومن أيّ شريحة

---

(١) سورة الأنبياء، آية ٩٢.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٠٣.

(٣) سورة الأنفال، آية ٤٦.

(٤) سورة المائدة، آية ٩١.

(٥) سورة التوبة، آية ٤٧.

اجتماعية انطلق وانتشر؟

اللافت للنظر ما يؤكّده القرآن الحكيم، في هذا السياق، من أن سبب الاختلاف في تلك الأمم ليس الجهل بالحقائق، ومنطلق الخلاف ليس من الأوساط الجاهلة بالدين والبعيدة عنه، وإنما جاء الاختلاف من واقع العلم والمعرفة، وانبثق من الأوساط العالمة بالدين التي تحتضن الدعوة والكتب السماوية المقدسة.

وهذا ما يظهر من آيات قرآنية عديدة نذكر بعضها كنماذج:

يقول تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾[١].

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾[٢].

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[٣].

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٤].

﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ

---

(١) سورة البقرة، آية ٤٦.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٩.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٠٥.

(٤) سورة يونس، آية ٩٣.

بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾[١].

وقد استوقفت هذه الملاحظة العديد من العلماء المفسرين للقرآن عند تناولهم لبعض هذه الآيات الكريمة.

يقول السيد محمد حسين الطباطبائي عند تفسيره للآية رقم ٢١٣ من سورة البقرة:

«إنه تعالى يخبرنا أن الاختلاف نشأ بين النوع في نفس الدين، وإنما أوجده حملة الدين ممن أوتي الكتاب المبين: من العلماء بكتاب الله بغياً بينهم وظلماً وعتوّا»[٢].

ويقول عند تفسيره للآية رقم ١٧ من سورة الجاثية:

«يشير إلى أن ما ظهر بينهم، من الاختلاف في الدين واختلاط الباطل بالحق، لم يكن عن شبهة أو جهل، وإنما أوجدها علماؤهم بغياً، وكان البغي دائراً بينهم»[٣].

ويتحدث السيد عبد الأعلى السبزواري بتوضيح أكثر حول الموضوع عند تفسيره للآية ٢١٣ من سورة البقرة فيقول:

«والمعنى: أن الاختلاف إنما حصل من حملة الكتاب العالمين به، بغياً بينهم وتجاوزاً، فحرفوا كتاب الله تعالى وضيّعوه وتعدوا حدوده».

---

(١) سورة الجاثية، آية ١٧.

(٢) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ج٢، ١٩٩١م (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)،صفحة١٢٤.

(٣) المصدر السابق، ج١٨،صفحة١٦٩.

«ويستفاد من قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ إن الاختلاف الحاصل في الكتاب والشريعة، لا يكون إلا من حملة الكتاب الذين قد استبانت لهم الآيات، وهم الأصل في الاختلاف الواقع في الأديان الإلهية، وأن غيرهم وإن كانوا على الخلاف، ولكنهم منحرفون عن الصراط وليسوا بغاة، ويشهد لذلك الاختلاف في كل علم، فانه يكون من العالمين به دون غيرهم ممن لا علم له به.

«كما يستفاد من قوله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أن الكتاب إنما نزل لرفع الاختلاف، والتوفيق بين الناس، وإسعادهم بما فيه من الحجج الواضحة، والبراهين القويمة، ولكن يشوب الحق أهواء العالمين به، وأغراضهم الفاسدة وزيغهم بتحريف الكتاب أو تأويله بما لا يرتضيه عز وجل، أو بتبديل آياته والأخذ بمتشابهاته، والإعراض عن محكماته»[1].

وحول تفسير الآية ١٠٥ من سورة آل عمران يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي:

«ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين، الذين جاءهم الدين والبينات الموجب لقيامهم به، واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعاً، ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد

(١) السيد عبد الأعلى السبزواري. مواهب الرحمن في تفسير القرآن ج٣، الطبعة الثانية ١٩٩٠م، (بيروت: مؤسسة أهل البيت)،صفحة٢٦٧.

سيئ، وبغي من بعضهم على بعض»[١].

ويؤكد الحقيقة نفسها الدكتور وهبة الزحيلي عند تفسيره للآية ٢١٣ من سورة البقرة فيقول:

«ثم ذكر الله تعالى إن بعض أهل الكتاب، جعلوا كتابهم مصدر الاختلاف عدواناً وتجاوزاً للحق، فقال: لقد اختلف الرؤساء والأحبار وعلماء الدين في الكتاب الذي أنزله الله للحق، بعدما جاءتهم البينات الواضحة، والأدلة على سلامة الكتاب، وعصمته من إثارة الخلاف، وأنه لإسعاد الناس، لا لأشقائهم والتفريق بينهم، ولم يكن ذلك الاختلاف من أولي العلم القائمين على الدين الحافظين له بعد الرسل، والمطالبين بتقرير ما فيه إلا حسداً وبغياً ـ جوراً ـ منهم، وتعدياً لحدود الشريعة التي أقامها حواجز للناس»[٢].

ولعلّ القرآن الكريم من خلال إثارته وطرحه المكرور، للدور السلبي الذي قام به علماء الدين في الأمم السابقة، الذين اتخذوا الدين مطية للوصول إلى مواقع الزعامة والنفوذ، وسلاحاً في معاركهم الداخلية المصلحية مع بعضهم البعض، فمزقوا وحدة أممهم وحولوها إلى أحزاب متناحرة، وشيع متصارعة باسم الدين...

لعلّ القرآن يريد بذلك تنبيه الأمة وتحذيرها، لتنظر إلى علمائها

---

(١) الشيخ عبد الرحمن السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ١٩٩٧م، (بيروت: مؤسسة الريان ـ دار الذخائر).

(٢) الدكتور وهبة الزحيلي. التفسير المنير ج٢، الطبعة الأولى١٩٩١م، (بيروت: دار الفكر المعاصر)صفحة٢٤٨.

بعقول واعية، ولتتعامل معهم بعيون مفتوحة، لا بثقة عمياء وتقديس مطلق.

إذا اختلف علماء الدين

قد يحدث الاختلاف والنزاع داخل أيّ شريحة من شرائح المجتمع، وعلى أيّ مستوى من مستوياته، وهو أمر سيئ ضار، لكن أضراره تبقى ضمن حدود معينه، أما إذا حدث الاختلاف والنزاع في وسط علماء الدين، فإن الأضرار ستكون اشد، والخطر أعظم.وذلك لأنه ينطوي على الأبعاد التالية:

١. استغلال الدين

في الخلاف بين علماء الدين، يصبح الدين هو ميدان الصراع، وتكون القضايا الدينية هي أدوات النزاع والخلاف، حيث يسعى كل طرف للتحصن بالدين، في مقابل الطرف الآخر، وتعزيز موقفه في النزاع بمبررات دينية، وقد يكون ـ كما هو الغالب ـ جوهر الصراع هو اختلافاً مصلحيًّا، لكنه ما يلبث أن يأخذ المنحى الديني، أو يكون في البداية اختلافاً محدوداً، ضمن مسألة من المسائل الدينية، لكن حالة الصراع توسّع رقعة الخلاف، وبشكل مفتعل متكلف، يطال اغلب المسائل والقضايا الدينية، حتى يصبح الدين الواحد دينين، والمذهب مذهبين، والمدرسة الفكرية تنشطر إلى مدرستين..

ثم يزايد كل طرف على الآخر في التمسك بالدين، ويتهمه في

دينه وعقيدته والتزامه، ويعطي لنفسه الحق في إصدار أحكام التكفير والتفسيق والمروق والخروج من الدين..

وهكذا يصبح الدين ساحة صراع، وخنادق للقتال، ومواقع للمهاجمة والرمي وتصويب السهام، فتتمزق الأمة وتحترب وتتشرذم باسم الدين، وتحت رايات تحمل شعاراته وخلف قيادات تلبس مسوحه.

٢. طمس الحقائق الدينية وتحريفها

لعلّ من أسوأ واخطر آثار الصراع والخلاف بين علماء الدين، انعكاسه على طرح وتبيين الحقائق الدينية.

فقد يلجأ بعض أطراف الصراع أو كلاهما إلى إنكار حقيقة دينية، أو طمسها، لأن الطرف الآخر يستفيد منها، أو يقول بها.

وقد يحرّف شيئاً من مفاهيم الدين، أو ينسب للدين ما ليس منه، نكاية بالطرف الآخر، وكم حصل في الديانات السابقة وحتى في الإسلام، تحريف وتزوير وإضافة وإنقاص، بسبب حالات الخلاف والصراع، بين المذاهب والمدارس والجهات الدينية.

وفي أكثر من آية في القرآن الكريم، جاء التحذير من التحريف والتزوير، والطمس للحقائق الدينية، بدوافع مصلحية، وعلى خلفية التعصب والاختلاف. يقول تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[1] أي يصرفونه عن المعنى المقصود منه وينسبونه إلى معنى آخر.

---

(١) سورة النساء، آية: ٤٦.

وحينما يجد عالم الدين نفسه في مقابل عالم آخر، فإن الدوافع الذاتية قد تدفعه لإثبات تميزه، أو تفوّقه على مقابله، وإن كان ذلك على حساب الحق والحقيقة، إلا من عصم الله من الورعين المخلصين الأتقياء.

من هنا جاءت تعاليم الإسلام، وتوجيهات أئمة الهدى، للتحذير من الدخول في أيّ نقاش أو مناظرة تشوبها الدوافع الذاتية، فالحوار والجدال مع الآخرين المختلفين مع الإنسان دينياً، يجب أن يكون خالصاً لخدمة الحق، واستكشاف الحقيقة، وضمن الآداب والضوابط، التي ترتقي بالحوار والجدال إلى أفضل مستوى، وأحسن أسلوب، كما يقول تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2].

روي أن رجلا قال للحسين بن علي عليه السلام: «اجلس حتى نتناظر في الدين فقال: يا هذا أنا بصير بديني، مكشوف عليَّ هداي، فإن كنت جاهلاً بدينك، فاذهب واطلبه مالي وللمماراة؟! وإن الشيطان ليوسوس للرجل ويناجيه ويقول: ناظر الناس في الدين كيلا يظنوا بك العجز والجهل»[3].

إن الإخلاص للحقيقة والموضوعية في الحوار والمناظرة عند الاختلاف، تستلزم القبول بالحق، وإن جاء على لسان الخصم، وحتى لو كان الطرف الآخر مبطلاً في أصل دعواه واتجاهه، لكنه أورد برهاناً

(١) سورة العنكبوت، آية ٤٦.

(٢) سورة النحل، آية ١٢٥.

(٣) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار،صفحة١٣٥.

صحيحاً في معرض جداله، فإنه لا يصح رفض البرهان الصحيح بسبب العجز عن مقابلته.

وهذا ما يشير له حديث رائع مروّي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)، قال فيه: «أما الجدال بغير التي هي أحسن، أن تجادل مبطلاً، فيورد عليك باطلاً، فلا تردّه بحجة قد نصبها الله تعالى، ولكن تجحد قوله، أو تجحد حقًّا يريد ذلك المبطل أن يعين به باطله، فتجحد ذلك الحق مخافة أن يكون عليك حجة، لأنك لا تدري كيف المخلص منه».

وفي فقرة أخرى من نفس الحديث: «و أما الجدال بغير التي هي أحسن، بأن تجحد حقًّا لا يمكنك أن تفرّق بينه وبين باطل من تجادله، وإنما تدفعه عن باطله بأن تجحد الحق، فهذا هو المحرّم لأنك مثله، جحد هو حقًّا وجحدت أنت حقًّا آخر»[١].

وقد أفرد الإمام أبو حامد الغزالي باباً في موسوعته (إحياء علوم الدين) لبيان آفات المناظرة وما يتولّد منها من مهلكات الأخلاق [٢].

والغريب أن بعض العلماء يجاهر بتخليه عن الموضوعية، ومخالفته للحقيقة والأحكام الشرعية، بمبرر التمايز عن الطرف الآخر، ومخالفته فيما ذهب إليه.

وكمثال على ذلك، ما ذكره الزرقاني في (المواهب اللدنية) في صفة

---

(١) المصدر السابق. صفحة١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) أبو حامد الغزالي. إحياء علوم الدين ج١، صفحة٦٨.

عِمّة النبي ﷺ على رواية علي عليه السلام في إسدالها على منكبه حين عمّمه رسول الله ﷺ، ثم ذكر قول الحافظ العراقي إن ذلك أصبح شعار كثير من فقهاء الإمامية فينبغي تجنبه لترك التشبه بهم[1].

وفي تفسيره للآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[2] يتحدث العلامة الآلوسي البغدادي عن الصلاة على غير الأنبياء والملائكة عليهم السلام فيقول:

«اضطربت فيها أقوال العلماء، فقيل تجوز مطلقاً، قال القاضي عياض، وعليه عامة أهل العلم، واستدل له بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾ وبما صح من قوله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى» وقوله عليه السلام وقد رفع يديه: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة». وصحّح بن حبان خبره»، أن امرأة قالت للنبي ﷺ: «صلِّ عليّ وعلى زوجي ففعل» وفي خبر مسلم «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: «صلى الله عليك وعلى جسدك» وقيل لا تجوز مطلقاً، وقيل لا تجوز استقلالاً وتجوز تبعاً فيما ورد فيه النص كالآل أو أُلحق به كالأصحاب ...».

ثم يذكر أدلّة أحد المانعين من الصلاة على غير الأنبياء والملائكة وهو محل الشاهد في بحثنا فيقول عنه: «هو أمر لم يكن معروفاً في الصدر الأول، وإنما أحدثه الرافضة في بعض الأئمة والتشبه بأهل البدع، منهي

---

(١) أسد حيدر. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج١، الطبعة الثانية ١٩٩٦م (بيروت: دار الكتاب العربي) صفحة٢٠٥.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٥٦.

عنه فتجب مخالفتهم»[١].

وينقل الشيخ ابن تيمية في منهاج السنة أن «المعروف في العراق أن الجهر بالبسملة كان من شعار الرافضة، وأن القنوت في الفجر كان من شعار القدرية، حتى إن سفيان الثوري وغيره من الأئمة يذكرون في عقائدهم ترك الجهر بالبسملة لأنه كان عندهم من شعار الرافضة»[٢].

ثم يقول ابن تيمية: «ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات إذا صارت شعاراً لهم ـ الشيعة ـ فإنه وإن لم يكن الترك واجباً لذلك، لكن في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميز السني من الرافضي، ومصلحة التميّز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة هذا المستحب»[٣].

وأذكر مرّة أن أحد العلماء أفتى لشخص ببطلان صلاته، لأنه اقتدى فيها بإمام يختلف معه، وأمره بإعادة الصلاة، مع إجماع الفقهاء على صحة الصلاة إذا اقتدى فيها بإمام، معتقداً توفره على شرائط الإمامة، فبان افتقاده لها أو لبعضها، وحتى لو تبيّن بعد الصلاة كون الإمام فاسقاً أو كافراً ! ويورد الفقهاء رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: في قوم خرجوا من خراسان أو بعض الجبال، وكان يؤمهم رجل، فلما صاروا

---

(١) محمود الآلوسي. روح المعاني ج٢٢، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)،صفحة٨٥.

(٢) أحمد بن تيمية الحراني. منهاج السنة ج٢، الطبعة الأولى ١٣٢١هـ، (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية)صفحة١٤٦.

(٣) المصدر السابق،صفحة١٤٧.

إلى الكوفة علموا أنه يهودي، قال عليه السلام: «لا يعيدون»[١].

ومع هذا فإن ذلك العالم أفتى بإعادة الصلاة خلف إمام مسلم، على نفس مذهبه، مع ثقة المصلي باجتماع الشرائط فيه حين الصلاة، لا لشيء إلا على خلفية الصراع والنزاع.

٣. إضعاف المصداقية والثقة في الدين وعلمائه

يتأثر الناس، في نظرتهم إلى أيّ فكرة أو مبدأ، بالواقع المنتسب إلى تلك الفكرة أو المبدأ، سلباً أو إيجاباً. وكما يقال، فالناس عقولهم في عيونهم، فالواقع الجميل يعتبر عامل جذب وتبشير بالفكرة التي يرتبط بها، بينما ينفّر الواقع السيئ من أيّ فكرة ينتسب إليها.

والإسلام كمنظومة قيم وتشريعات إلهية عظيمة، يجب أن تنعكس وتتجلى في حياة المؤمنين به، ليكون ذلك دافعاً لإقبال الآخرين على اعتناقه، والالتزام به، من خلال مشاهدتهم لنموذج تطبيقي مشَّرف.

أما لو حصل العكس من ذلك، وكانت حياة المتدينين سيئة متخلفة، فإن ذلك سيسبب عزوفاً عند الآخرين من الدين.

لذلك يروى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قوله مخاطباً تلامذته وأتباعه: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإن ذلك داعية»[٢].

---

(١) السيد محسن الحكيم. مستمسك العروة الوثقى ج٧، (بيروت: دار إحياء التراث العربي) صفحة٣٠٧.

(٢) محمد بن يعقوب الكليني. الأصول من الكافي، ج٢ صفحة٧٨.

وفي حديث آخر يخاطب أتباعه قائلاً: «إنكم قد نُسبتم إلينا، كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً»[١].

وعلماء الدين هم قمة المجتمع الإسلامي، وطليعته، فإذا ما كان واقعهم مشرقاً نقياً، يعكس صفاء قيم الإسلام، فإن ذلك يقدم للآخرين صورةً مشرقة عن الدين، مما يزيد من الاندفاع والإقبال على الدين، والالتزام بمبادئه.

أما إذا ظهر الخلاف والصراع بين علماء الدين، ونشط كل واحد منهم في إظهار معايب الآخر وأخطائه، فسيعطي ذلك صورة مشوهة عن الإسلام، وسيتساءل الكثيرون: إذا كانت تعاليم الدين سليمة ومجدية؛ فلماذا لا يظهر أثرها على حملته والمبشرين به؟

وعلماء الدين يفترض أن يكونوا قادة المجتمع المسلم، ومحل ثقته ومحور التفافه، وكيف تتوفر فيهم ثقة الناس، إذا ما اختلفوا وتصارعوا، وعملوا على إسقاط سمعة بعضهم بعضاً؟

لقد استفاد المخالفون للإسلام كثيراً من وجود الخلافات والنزاعات بين الجهات الدينية، لإبعاد الناس عن العلماء، عبر التشكيك في مصداقيتهم، والتأكيد على دوافعهم الذاتية المصلحية، ونزوعهم إلى المواقع والمناصب.

٤. عمق الخلاف وانتشاره

نظراً لموقعية العلماء المميزة في أوساط جماهير الأمة، وللتأثير الكبير

(١) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج٥ صفحة ٢٤١.

الذي يمتلكونه فإن اختلافهم ونزاعهم لن يبقى في حدودهم، وإنما سيعكسه كل منهم على أتباعه، وسينشره في ساحة نفوذه وتأثيره، وبذلك يصبح الخلاف بين كل عالمين خلافاً ونزاعاً بين جماعتين وفرقتين من المجتمع، وليس خلافاً بين شخصين، كما هو شأن أيّ اختلاف بين الأشخاص العاديين.

وقد يجد الناس أنفسهم محشورين، ومتورطين في صراع ونزاع بين عالمين، تحت عنوان قضية فكرية، أو مسألة شرعية، لا يعرفون مضمونها، ولا دليلها وبرهانها، وإنما يتمحور كل قسم منهم حول عالم يثقون به، أو قد توارثوا الولاء لاتجاهه.

وقد عايشت بعض مظاهر وحالات الخلاف والنزاع بين الناس في منطقتنا لفترة سابقة، بين من يسمّون أنفسهم بالأصوليين، ومن يسمّون أنفسهم بالإخباريين، والخلاف في جوهره علمي يرتبط بمناهج استنباط الأحكام الشرعية، ولا دخل فيه لعامة الناس، بل لا يعرف الأصولي منهم ماذا تعني الأصولية؟ ولا الإخباري منهم ماذا تعني الإخبارية؟ ولكنهم مع ذلك يتنازعون ويتمايزون !! وقد يتشدد بعضهم في رفض التزاوج، والاقتداء بالطرف الآخر في صلاة الجماعة وما أشبه، دون مبرر، إلا توارث الانتماء والالتفاف حول هذا العالم أو ذاك.

وإضافة إلى انتشار الخلاف، واتساع رقعته، بين أبناء المجتمع، هناك مشكلة اعقد، هي حدة الصراع وعمقه غالباً، حيث يأخذ الخلاف

صبغة دينية، ويرى كل طرف نفسه محقًّا، والآخر مبطلاً، وقد يجيز لنفسه تكفير الآخر، أو تفسيقه، أو مقاطعته، أو إعلان الحرب عليه.

وهذا ما يحدث عادة في الخلافات الدينية، فأقسى الحروب وأبشعها تلك التي تتم بشعارات دينية، وأعمق النزاعات وأشدها ما يدور منها في أوساط المتدينين، وبتصدي القيادات الدينية.

٥. الانشغال بالخلافات

العالم يجب أن يكرّس جهوده ووقته لاستنباط حقائق الدين وأحكامه، ولنشرها وبثّها في المجتمع، وللدعوة إلى الله تعالى، حتى في أوساط غير المسلمين، ولردّ شبهات الكفار والمخالفين للدين، وتعبئة الأمة لمواجهة الأخطار المحدقة بها، ولترتقي إلى مستوى الريادة بين الأمم لتكون كما أرادها الله تعالى ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[١]، و﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[٢].

لكن الخلافات والنزاعات بين علماء الدين تشغلهم ببعضهم بعضاً، فتتركز أذهانهم وأفكارهم في ميدان هذا الصراع، وتتجه جهودهم وأنشطتهم لتحقيق الأهداف والنقاط في ساحته، وتتمحور علاقاتهم وتحالفاتهم على أساسه.

وحينما ابتلي علماء الأمة في عصور التخلف بهذا الداء الوبيل، تقلصت جهودهم للتبشير بالإسلام، وتوسيع رقعة انتشاره، كما

---

(١) سورة آل عمران، آية ١١٠.

(٢) سورة البقرة، آية ١٤٣.

توقفت لديهم حركة الإبداع العلمي والفكري، وأصبح الجهد منصبًّا على شرح المتون السابقة، والجدل حول مفاداتها، مما أدى إلى انكماش دورهم القيادي في المجتمع.

ولو تصفحنا المكتبة الإسلامية لوجدناها مليئة بكتب الخلافات والردود المتبادلة، بين الأشاعرة والمعتزلة، وبين الشيعة والسنة، وداخل كل مذهب بين الاتجاهات المختلفة.

بينما تقل الكتابات التي تسبر أغوار الفكر الإسلامي، وتستجلي أبعاده، وتستنبط برامج الشريعة لمختلف جوانب الحياة، وتستنهض الأمة لتفجير كفاءاتها، ولمواجهة التحديات التي تحيط بها، وتوجه الأنظار إلى خزائن الكون، وثروات الطبيعة، وأدوارهم الطليعية.

وهكذا تزّيف الخلافات والصراعات اهتمامات العلماء، وتشغلهم عن القيام بمهامهم الأساس، وأدوارهم الطليعية.

الاختلاف العلمي

هناك تساؤل عريض يدور في أوساط الجمهور، وعامة أفراد المجتمع، هو: لماذا وكيف يحصل الاختلاف بين العلماء؟ وعادة ما يأتي السؤال بصيغة الاستغراب والاستنكار!!

الاستغراب نتيجة لما يعتقده الناس من أن العلماء يعبرون عن الدين، ويتحدثون عن حقائقه وأحكامه، والدين واحد وحقائقه وأحكامه واحدة ثابتة، فكيف يختلف العلماء فيما ينقلونه عن الدين، وتتعدد فتاواهم وآراؤهم في الموضوع الواحد، والمسألة الواحدة؟ ثم

كيف يدرك الناس ويعرفون الرأي الحقيقي، والحكم الواقعي للدين، مع هذا الاختلاف والتفاوت في الآراء والفتاوى؟

والاستنكار لما يتوقعه الناس من نزاهة العلماء، وورعهم، وحسن نياتهم، والتزامهم تعاليم الإسلام، وتخلّقهم بأخلاقه وآدابه، مما يجعلهم، وفقاً لتوقّعات الناس، منسجمين متعاونين فيما بينهم، لا سبيل للشيطان عليهم، ولا تأثير للمصالح والأغراض المادّية في نفوسهم، وإلا فكيف يكونون علماء وأئمة للناس، وحجة فيما بينهم وبين الله؟

هذا التساؤل الذي يدور بإلحاح، في أوساط العامة من الناس، يستوجب منّا وقفة متأنّية، ومعالجة هادئة، للإجابة عنه، باستعراض أهم الأسباب والعوامل، التي تنتج منها حالات الاختلاف بيت العلماء، وهي في مجملها العوامل والأسباب نفسها لأيّ اختلاف آخر يجري بين أبناء البشر، ضمن مختلف الشرائح والتخصصات.

فالعلماء مثلهم مثل سائر الناس، والعلوم الدينية التي اكتسبوها لا تتجاوز بهم طبيعتهم البشرية، ولا تنقلهم إلى الحالة الملائكية، كما لا تمنحهم درجة العصمة التي اختص الله تعالى بها أنبياءه وأوصياءه.

صحيح أن العلماء يعتمدون في آرائهم الدينية، وفتاواهم الشرعية، على مصدرين أساسيين، هما الكتاب والسنة، لكن ذلك لا يعني الاتفاق في الآراء والفتاوى.

ففي القرآن الكريم، وهو المصدر الأول، والمقطوع بصدوره من قبل الله تعالى حرفاً حرفاً، دون أيّ زيادة أو نقصان، إلا أن فهم الدلالة

والمعنى في بعض الآيات الكريمة، قد تكون مجالاً للاختلاف بين العلماء والمفسرين، إما لأسباب تعود للغة، كما إذا ورد في الآية لفظ مشترك، وضع لمعان متعددة مختلفة، كلفظ (عين) حيث تستعمل في الباصرة، والجارية، والذهب الخالص، والرقيب، ولم تكن إلى جانبها قرينة تدلّ على المراد منها فهنا يحصل الاختلاف في حملها على أيّ معاينها.

ومن شواهد هذه الحالة قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾[1] ولفظ (القرء) في اللغة مشترك، بين الطهر والحيض لذا اختلف الفقهاء في عدة المطلقة أتكون بالحيض أم بالإطهار.

وكذلك فيما يكون للفظ استعمالات: حقيقي ومجازي، فيختلف العلماء حول المراد من ذلك اللفظ في الآية، هل هو المعنى الحقيقي أو المجازي؟.. وما شابه ذلك من موارد. كما في اختلافهم حول آية الوضوء، في سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[2].

فالآية تنص على مسح الرأس في الوضوء، لكن حرف الباء الوارد في (برؤوسكم) هل هو للتبعيض؟ فيكفي مسح بعض الرأس، وبه قال فقهاء مذهب أهل البيت، وفقهاء المذهب الحنفي والشافعي، أم هو حرف زائد؟ أو للإلصاق؟ فيجب مسح جميع الرأس، كما هو رأي

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٢٨.

(٢) سورة المائدة، آية ٦.

فقهاء المذهب المالكي والحنبلي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ هل هي معطوفة على ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾؟ فيكون حكم الرجلين هو الغسل، كالوجه وهو ما يراه فقهاء المذاهب الأربعة، أو أنها معطوفة على ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ فيكون حكم الرجلين المسح كالرأس وهو ما ذهب إليه فقهاء مذهب أهل البيت. ويستند أهل كل رأي لدليل يعتمدون عليه.

وقد ينشأ الاختلاف حول مفاد النص القرآني، لتفاوت مستويات المعرفة والإدراك، أو نظراً لعلاقة النص بنصوص أخرى من القرآن أو السنة.

وفيما يرتبط بالسُنّة النبويّة، وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، فإن مجال الاختلاف فيها بين العلماء أوسع، وأسبابه أكثر، لأن القرآن الكريم يتفق المسلمون على قطعية صدوره من قبل الله تعالى، ثم قد يختلفون في مداليل ومعاني بعض آياته كما ـ سبق ـ أما السنة، فإن كل حديث من أحاديثها يحتاج إلى بحث، للتأكد من صحة سنده أولاً، ومن ثم يكون البحث في مدلوله ومعناه، وكلا الجانبين يتسع لاختلاف وتعدد وجهات النظر.

فالعالم لا يقبل حديثاً، إلا إذا كان مطمئناً من صدق راويه، وصحة سند روايته، وهنا يتفاوت تقويم العلماء للرواة، وقبولهم لأسانيد الروايات.

ثم قد يحصل الاتفاق على صحة حديث، لكن يختلف في تحديد

معناه ودلالته. وكمثال على ذلك حديث غدير خم وهو «قوله ﷺ يوم غدير خم (موضع بالجحفة) مرجعه من حجة الوداع بعد أن جمع الصحابة، وكرر عليهم: ألست أولى بكم من أنفسكم ثلاثاً، وهم يجيبون بالتصديق والاعتراف، ثم رفع يد علي، وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وابغض من ابغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدِر الحق معه حيث دار»[1] وهذا الحديث اجمع علماء الشيعة على صحته وقبوله، ورأوه دالاً على تنصيب علي ابن أبي طالب كإمام ووليّ وخليفة من قبل رسول ﷺ، ووافقهم على قبول الحديث كثير من علماء السنة ولكنهم خالفهم في تحديد دلالة الحديث.

وأورده المحدث السلفي المعاصر، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، في كتابه سلسلة الأحاديث الصحيحة، وعدد له أكثر من عشرين طريقاً، ثم أضاف قائلاً: «وللحديث طرق أخرى كثيرة، جمع طائفة منها الهيثمي في المجمع (٩/ ١٠٣ـ ١٠٨) وقد ذكرت وخرّجت ما تيسر لي منها، مما يقطع الواقف عليها، بعد تحقيق الكلام على أسانيدها، بصحة الحديث يقيناً، وإلا فهي كثيرة جدًّا، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد. قال الحافظ ابن حجر: منها صحاح ومنها حسان»[2].

---

(١) أحمد بن حجر الهيثمي. الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، ١٣٧٥هـ(القاهرة: مكتبة القاهرة)،صفحة ٤٠.

(٢) محمد ناصر الدين الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة ج٤، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، (عمّان: المكتبة الإسلامية ـ الكويت: الدار السلفية) ،صفحة ٣٣٠ ـ ٣٤٣.

يقول ابن حجر: «أنه حديث صحيح لا مرية فيه وقد أخرجه جماعة كالترمذي والنسائي واحمد، وطرقة كثيرة جدًّا، ومن ثم رواه ستة عشر صحابياً، وفي رواية لأحمد أنه سمعه من النبي ﷺ ثلاثون صحابياً، وشهدوا به لعلي لما نوزع أيام خلافته ـ كما مر وسيأتي ـ وكثير من أسانيدها صحاح وحسان، ولا التفاف لمن قدح في صحته ولا لمن رده»[1].

لكنه يخالف علماء الشيعة في الاستدلال بالحديث على إمامة علي وخلافته بقوله: «لا نسلم أن معنى الولي ما ذكروه، بل معناه الناصر، لأنه مشترك بين معان، كالمعتق والعتيق والمتصرف في الأمر، والناصر والمحبوب، وهو حقيقة في كل منها، وتعيين بعض معاني المشترك من غير دليل يقتضيه تحكم لا يعتد به».

بينما يرى علماء الشيعة أن القرائن الحالية التي تزامنت مع النص من أمر رسول الله ﷺ بإيقاف حركة سير قوافل الحجيج، الذين بلغ عددهم نحو مئة ألف، في تلك الصحراء التي يلفحها الهجير، وتلتهب رمالها بوهج الظهيرة، ومن أخذه ﷺ بيد علي عليه السلام، ورفعها أمام الناس، وكذلك القرائن اللفظية كقوله ﷺ: ألست أولى بكم من أنفسكم، ثلاثاً، وهم يجيبونه بالتصديق، ودعائه لعلي بتلك الدعوات المميزة، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله.

إضافة إلى العديد من النصوص والإشارات والمؤشرات، التي يرى

(١) أحمد بن حجر الهيثمي. الصواعق المحرقة، صفحة ٤٠.

فيها علماء الشيعة تحديداً وتأكيداً لدلالة هذا النص على تنصيب الإمام علي للخلافة والإمامة[١].

فهنا اتفاق على النص وصحة صدوره عن النبي ﷺ لكن الاختلاف هو في تحديد دلالة النص.

وهناك مصادر أخرى يختلف العلماء في مدى وحدود حجيتها للتشريع الإسلامي، كالإجماع والعقل، وما يتفرع عنه من قياس واستحسان.

فالإجماع مثلاً هل هو حجة بذاته، وكأصل مستقل من أصول التشريع، كما يقول بذلك جمهور فقهاء المذاهب الأربعة؟ أم إنه حكاية عن أصل، فحجيته تتوقف على كاشفيته عن رأي المعصوم كما يقول فقهاء الشيعة؟

ثم ما هي حدود الإجماع الذي يحتج؟ به هل هو إجماع مطلق الأمة؟ أو خصوص المجتهدين منهم في عصر؟ أو اتفاق أهل المدينة؟ أو اتفاق مجتهدي المذاهب خاصة؟

ظاهرة الاختلاف العلمي

الاختلاف في الرأي والفتوى بين العلماء، مع وحدة المصدر، هو أمر له أسبابه، ومبرراته المعقولة، وهي جزء من ظاهرة الاختلاف

---

(١) يراجع: الشيخ عبد الحسين الأميني. الغدير في الكتاب والسنة والأدب ج١، ١٤١٤هـ (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)،صفحة٤١٨ ـ ٤٥٨.

الطبيعية، بين أبناء البشر، في مختلف مجالات المعرفة، وميادين الحياة. فالأطباء والمهندسون والاقتصاديون والفنيون، وسائر الشرائح العلمية والعملية في المجتمع، تتعدد في أوساطهم المدارس والمناهج، والآراء والنظريات.

وقد يضيق البعض ذرعاً بهذا الاختلاف بين العلماء، في الفتوى والرأي، ويتساءلون عن إمكان تلافي حالة الاختلاف، والخروج منها، بأن يتفق علماء الإسلام على آراء وفتاوى موحدة، في الأصول والفروع، للعبادات والمعاملات، فلا تكون هناك مذاهب متعددة ولا مدارس مختلفة ولا أحكام متضاربة.

لكن هذه أمنية لا تنسجم مع طبيعة الدين، والذي أراد الله تعالى أن تكون فيه مساحة للاجتهاد، وشحذ العقول والأذهان، وعبر ذلك يُبتلى الإنسان ويُمتحن إخلاصه في البحث عن الحقيقة والتسليم لها، ولو كانت كل الأحكام منصوصة واضحة، لا تحتمل خلافاً، لما كان هناك بحث ولا اجتهاد، ولا استلزم الأمر ابتلاءً وامتحاناً.

ولعلّ في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١]، لعل في ذلك إشارة إلى هذا المعنى.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٧.

كما أن طبيعة اللغة تنتج شيئاً من الاختلاف، فالقرآن الحكيم نصوص قولية لفظية، والسنة المنقولة كذلك، ألفاظ وأقوال، والأقوال لدى أبناء البشر، يرد فيها الاختلاف، لوجود الألفاظ المشتركة، التي تحتمل أكثر من معنى، ولوجود المعاني الحقيقة والمجازية، ولإمكان الدلالة بالمنطوق والمفهوم.

ولذا تتعدد الشروح والتفسيرات لأقوال الأدباء والعلماء والحكماء، ويحصل الاختلاف في تفسير مواد القوانين والمعاهدات، والوثائق الرسمية والنقل التاريخي.

وأخيراً، فإن طبيعة البشر، في تفاوت مستويات علومهم وأفهامهم، واختلاف توجهاتهم، وحالاتهم النفسية، تنعكس ولا شك على استنتاجاتهم وآرائهم ومواقفهم.

لكل ذلك، يكون الاختلاف العلمي في الرأي والفتوى أمراً طبيعياً لا مفر منه ولا يمكن تجاوزه.

إيجابيات الاختلاف العلمي

على أن هذا الاختلاف العلمي قد ساهم في تنشيط حركة الفكر والاجتهاد، وأنتج هذه الثروة المعرفية الكبيرة للأمة، فلو كان هناك رأي واحد ثابت، في تفسير الآيات القرآنية، لما كانت لدينا هذه المكتبة القرآنية الواسعة من التفاسير، حيث يسعى كل مفسر لامعان النظر والتدبّر في الآيات الكريمة، واكتشاف الجديد والمزيد من آفاقها ومعانيها، دون أن يقيد حركة فكره برأي مفسر سابق.

ولو كان هناك سقف في الفتوى برأي محدد، في جميع الأحكام، لا يمكن تجاوزه، لما توفرّت للأمة هذه الثروة الفقهية التشريعية الضخمة، التي نوهت بها المجامع والمؤتمرات العالمية مثل مؤتمر (لاهاي) للقانون المقارن سنة ١٩٣٦م، ومؤتمر باريس سنة ١٩٥١م.

ويدرك العلماء المفكرون أهمية هذه الثروة العلمية، وما فيها من تنوع في الأفكار والاجتهادات، تتيح المجال لتقديم البرامج والطروحات التشريعية المتكاملة، لمختلف مجالات الحياة.

حينما قام الفقيه الشهيد السيد محمد باقر الصدر ببحثه العلمي، ودراسته القيمة، حول نقد المذاهب الاقتصادية الماركسية والرأسمالية، ورسم معالم المذهب الاقتصادي للإسلام، وجد في تنوع الآراء الاجتهادية للفقهاء المسلمين، رصيداً مهمًّا استفاد منه في تكوين صورة متكاملة عن الاقتصاد الإسلامي. يقول ﵀: «فالاجتهاد إذن عملية معقدة، تواجه الشكوك من كل جانب. ومهما كانت النتيجة راجحة في رأي المجتهد، فهو لا يجزم بصحتها في الواقع، مادام يحتمل خطأه في استنتاجها، إما لعدم صحة النص في الواقع وإن بدا له صحيحاً، أو الخطأ في فهمه، أو في طريقة التوفيق بينه وبين سائر النصوص، أو لعدم استيعابه نصوصاً أخرى ذات دلالة في الموضوع، ذهل عنها الممارس، أو عاثت بها القرون.

«وهذا لا يعني، بطبيعة الحال، إلغاء عملية الاجتهاد، أو عدم جوازها، فإن الإسلام ـ بالرغم من الشكوك التي تكتنف هذه العملية

ـ قد سمح بها، وحدد للمجتهد المدى الذي يجوز له أن يعتمد فيه على الظن، ضمن قواعد تشرح عادة في علم أصول الفقه، وليس على المجتهد إثم إذا اعتمد ظنه في الحدود المسموح بها، سواء أخطأ أو أصاب.

«وعلى هذا الضوء، يصبح من المعقول ومن المحتمل أن توجد لدى كل مجتهد مجموعة من الأخطاء والمخالفات لواقع التشريع الإسلامي، وإن كان معذوراً فيها. ويصبح من المعقول أيضاً أن يكون واقع التشريع الإسلامي في مجموعة من المسائل التي يعالجها موزعاً هنا وهناك، وبنسب متفاوتة في آراء المجتهدين، فيكون هذا المجتهد على خطأ في مسألة وصواب في مسألة أخرى ويكون الآخر على العكس.

«ولكن علينا أن نتساءل: هل من الضروري أن يعكس لنا اجتهاد كل واحد من المجتهدين ـ بما يضم من أحكام ـ مذهباً اقتصادياً كاملاً، وأسساً موحدة منسجمة مع بناء تلك الأحكام وطبيعتها؟

«ونجيب على هذا السؤال بالنفي، لأن الاجتهاد الذي يقوم على أساسه استنتاج تلك الأحكام معرض للخطأ، ومادام كذلك، فمن الجائز أن يضم اجتهاد المجتهد عنصراً تشريعياً غريباً على واقع الإسلام، قد أخطأ المجتهد في استنتاجه، أو يفقد عنصراً تشريعياً إسلامياً لم يوفق المجتهد للظفر به في النصوص التي مارسها. وقد تصبح مجموعة الأحكام التي أدى إليها اجتهاده متناقضة في أسسها بسبب هذا أو ذاك، ويتعذر عندئذٍ الوصول إلى رصيد نظري كامل يوحد بينها، أو تفسير مذهبي شامل يضعها جميعاً في إطّراد واحد.

«فليس من الضروري أن تعكس الأحكام التي يضعها ذلك الاجتهاد مذهباً اقتصادياً كاملاً، وأساساً نظرياً شاملاً، مادام من الممكن فيها أن تضم عنصراً غريباً أو تفقد عنصراً أصيلاً بسبب خطأ المجتهد.

«وقد يؤدي خطأ واحد في مجموعة تلك الأحكام إلى قلب الحقائق في عملية الاكتشاف رأساً على عقب، وبالتالي إلى استحالة الوصول إلى المذهب الاقتصادي عن طريق تلك الأحكام.

«ولهذا، قد يواجه الممارس لعملية اكتشاف المذهب الاقتصادي محنة، هي محنة التناقض بين وصفه مكتشفاً للمذهب، ووصفه مجتهداً في استنباط الأحكام. وذلك فيما إذا افترضنا أن المجموعة من الأحكام التي أدى إليها اجتهاده الخاص، غير قادرة على الكشف عن المذهب الاقتصادي. فالممارس في هذه الحالة، بوصفه مجتهداً في استنباط تلك الأحكام، مدفوع بطبيعة اجتهاده إلى اختيار تلك الأحكام التي أدى إليها اجتهاده، لينطلق منه في اكتشافه للمذهب الاقتصادي. ولكنه، بوصفه مكتشفاً للمذهب، يجب عليه أن يختار مجموعة منسقة من الأحكام، منسجمة في اتجاهاتها ومدلولاتها النظرية، ليستطيع أن يكتشف على أساسها المذهب، وهو حين لا يجد هذه المجموعة المنسقة في الأحكام التي أدى إليها اجتهاده الشخصي، يجد نفسه مضطراً إلى اختيار نقطة انطلاق أخرى، مناسبة لعملية الاكتشاف.

«والسبيل الوحيد الذي يتحتم على الممارس سلوكه في هذه الحالة، أن

يستعين بالأحكام التي أدت إليها اجتهادات غيره من المجتهدين»[١].

شرعية الخيار الآخر

قد يجد المكلف نفسه أمام حكم شرعي يصعب عليه الالتزام به، ونقصد بذلك ما دون مرتبة العسر والحرج والاضطرار، التي لها تكليفها الخاص، وهنا في موقع الصعوبة، فإن اختلاف الفتاوى يتيح للمكلف خياراً آخر يتناسب مع مصالحه وظروفه، وهو ضمن دائرة المشروعية مادام ناتجاً عن اجتهاد مقبول.

وتبرز أهمية هذا الأمر أكثر على المستوى الاجتماعي، في التشريعات التي تتعلق بالشؤون العامة للناس.

وكمثال على ذلك موضوع الطلاق، حيث تحصل حالات من التسرع والانفعال عند بعض الأزواج، فيوقع الطلاق ثلاثاً على زوجته دفعة واحدة. وعلى رأي فقهاء المذاهب الأربعة فإن الطلاق يقع ثلاثاً، ولا يحل له الرجوع إلى زوجته حتى تنكح زوجاً غيره.

لكن الالتزام بهذا الرأي أدّى إلى الكثير من المشاكل العائلية والاجتماعية، وفي مقابله رأي آخر لفقهاء الشيعة يرى عدم وقوع الطلاق إلا مرة واحدة، مما يتيح فرصة الرجوع للزوج، وهو رأي الزيدية أيضاً، وقد ذهب إلى هذا الرأي من فقهاء السنة الشيخ ابن تيمية وابن القيم.

وقد أخذت بهذا الرأي عدة جهات إسلامية، وتضمنه قانون

(١) السيد محمد باقر الصدر. اقتصادنا، (بتصرف)، ١٩٩١م، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات) صفحة ٣٩٤ ـ ٣٩٨.

الأحوال الشخصية الذي صدر في مصر سنة ١٩٢٩م، وقد جاء في (المذكرة التفسيرية) لهذا القنون أنه موافق لآراء بعض فقهاء المسلمين، ولو من غير المذاهب الأربعة. وأنه ليس هناك مانع شرعي من الأخذ بقول غيرهم خصوصاً إذا ترتب عليه نفع عام[١].

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي، حول هذه المسألة: «والذي يظهر لي رجحان رأي الجمهور وهو وقوع الطلاق ثلاثاً، إذا طلق الرجل امرأته دفعة واحدة، لكن إذا رجح الحاكم رأياً ضعيفاً صار هو الحكم الأقوى، فإن صدر قانون، كما هو الشأن في بعض البلاد العربية، بجعل هذا الطلاق واحدة، فلا مانع من اعتماده والإفتاء به، تيسيراً على الناس، وصوناً للرابطة الزوجية، وحماية لمصلحة الأولاد، خصوصاً ونحن في وقت قل فيه الورع والاحتياط، وتهاون الناس في التلفظ بهذه الصيغة من الطلاق، وهم يقصدون غالباً التهديد والزجر، ويعلمون أن في الفقه منفذاً للحل ومراجعة الزوجة»[٢].

ولعل كثيراً من المشاكل والتحديات، التي يواجهها المجتمع الإسلامي في هذا العصر، يمكن معالجتها في الإطار الشرعي، إذا ما ساد منهج الانفتاح الفقهي، وتوخي التيسير على الناس.

ويشير الأستاذ الكبير، مصطفى الزرقا، إلى هذا الاتجاه بقوله: «ويرى بعض المفكرين من علماء العصر، أن مجموعة المذاهب الاجتهادية،

---

(١) الدكتور محمد فاروق النبهان. المدخل للتشريع الإسلامي، الطبعة الثانية ١٩٨١م، (الكويت: وكالة المطبوعات ـ بيروت: دار القلم) صفحة ٣٦٤.

(٢) الدكتور وهبة الزحيلي. الفقه الإسلامي وأدلته، ج٧، صفحة ٤١٣.

يجب أن تعتبر كمذهب واحد كبير في الشريعة، وكل مذهب فردي منها، كالمذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي وغيرها، يعتبر في هذا المذهب العام الكبير، كالآراء والأقوال المختلفة في المذهب الفردي الواحد، فيرجع علماء الأمة ويختارون منها للتقنين في ميدان القضاء والفتيا ما هو أوفى بالحاجة الزمنية ومقتضيات المصلحة في كل عصر، وهذا رأي سديد»[١].

وهذا الاتجاه في الاستفادة من تعدد آراء الفقهاء، لاختيار ما هو الأنسب، وللتوسعة على الأمة ليس جديداً وطارئاً، بل هو اتجاه أصيل وعريق في تاريخ التشريع الإسلامي.

قيل لعمر بن عبد العزيز: «لو جمعت الناس على شيء؟ فقال: ما يسرني أنهم لم يختلفوا. قال: ثم كتب إلى الآفاق وإلى الأمصار: ليقض كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم»[٢].

وعن عون بن عبد الله قال: «قال لي عمر بن عبد العزيز: ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، فإنهم لو اجتمعوا على شيء فتركه رجل ترك السنة، ولو اختلفوا فأخذ رجل بقول أحد أخذ بالسنة»[٣].

وروى ابن عبد البر النمري بسنده إلى يحي بن سعيد قال: «ما برح أولو الفتوى يفتون فيحلّ هذا، ويحّرم هذا، فلا يرى المحّرم أن المحل

---

(١) الدكتور محمد فاروق النبهان. المدخل للتشريع الإسلامي،صفحة٣٧٠.

(٢) نبيل العمري. فتح المنان إلى شرح وتحقيق المسند الجامع للإمام الدارمي ج٣، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، (بيروت: دار البشائر الإسلامية ـ مكة المكرمة: المكتبة المكية)صفحة٥٢١.

(٣) المصدر السابق.صفحة٥٢٣.

هلك لتحليله، ولا يرى المحلّ إن المحّرم هلك لتحريمه»[١].

وقد ألف أحد علماء القرن الثامن الهجري كتاباً بعنوان (رحمة الأمة باختلاف الأئمة) هو العلامة الشيخ محمد بن عبد الرحمن الدمشقي الشافعي، وقد طبع أخيراً من قبل إدارة إحياء التراث الإسلامي في دولة قطر سنة ١٤٠١هـ.

ويرى أكثر فقهاء الشيعة تخيير المكلف في الأخذ بفتوى أي من المجتهدين المتساويين في المرتبة العلمية، بأن يلتزم بالعمل بجميع فتاواه، أو أن يأخذ ببعض الفتاوى منه، والبقية من الفقهاء الآخرين.

يقول السيد محمد كاظم اليزدي: «إذا كان هناك مجتهدان متساويان في العلم كان للمقلّد تقليد أيهما شاء ويجوز التبعيض في المسائل»[٢].

اختلاف المصالح والأهواء

يفترض في رجل الدين أن يكون على درجة من الورع والتقوى، تمنعه من الانقياد للأهواء، والاستجابة للدوافع المصلحية الذاتية، على حساب القيم والمبادئ.

١. فرجل الدين قد اطلع أكثر من غيره، على أحكام الدين وتعاليمه، بشكل مفصل، من خلال دراسته للقرآن الكريم، والسنة النبوية وسائر المناهج الدينية.

---

(١) الدكتور يوسف القرضاوي. الصحوة الإسلامية بيت الاختلاف الشروع والتفرق المذموم، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م، (بيروت: مؤسسة الرسالة)صفحة٤٩.

(٢) السيد محمد كاظم اليزدي. العروة الوثقى، (مسائل التقليد)، مسألة رقم ٣٣ ورقم ٦٥.

ولاحظ مدى تأكيد النصوص الشرعية أهمية الوحدة، وحسن التعامل مع الآخرين، وتشديدها على سوء التفرقة والنزاع والتنافر مع الآخرين.

وإن في الألفة والتوادد بين الناس عظيم الأجر والثواب من الله سبحانه، وفي التخاصم والتقاطع ما يوجب غضب الرب تعالى، وسخطه وعذابه.

هذه المعرفة والاطلاع ينبغي أن تجعل رجل الدين أكثر ورعاً، وخشية لله، وأبعد عن الانزلاق في مهاوي الفتن والبغضاء.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

٢. ورجل الدين، بقراءته لسير الأنبياء والأولياء وخاصة سيرة الرسول الأعظم ﷺ وسير الأئمة من ذريته وخيرة أصحابه، وما تنضح به تلك الصفحات المشرقة من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وروائع الصفات.. يجب أن يكون أكثر تطلعاً وتشوقاً للتأسي، والاقتداء بتلك النفوس الطاهرة، والشخصيات المباركة.

ففي سورة الأنعام، بعد أن يستعرض القرآن الحكيم بعض الصور والمشاهد من حياة الأنبياء والأولياء، يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[2].

٣. ولأن رجل الدين في موقع الإرشاد والوعظ للآخرين، حيث

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٩٠.

يدعو الناس إلى تقوى الله، ويأمرهم بالتزام أحكامه وحدوده، ويحذرهم من إغواء الشيطان، والخضوع للشهوات والأهواء، فإنه يجب أن يكون قدوة للناس، متعظاً بما يعظ به، وملتزماً قبل غيره، ليكون كلامه مؤثراً في الناس، مقبولاً لديهم، وليكون منسجماً مع نفسه.

كما يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من نصب نفسه للناس إماماً، فليبدأ بتعليم نفسه، قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته، قبل تأديبه بلسانه. ومعلم نفسه ومؤدبها، أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم»(١) .

لكل ذلك، فإن المتوقع أن تكون العلاقة بين رجال الدين علاقة مثالية، نابعة من قيم الإسلام ومنسجمة مع تعاليمه. وإذا كان الاختلاف العلمي له مبرراته وأسبابه المقبولة، فليكن الخلاف ضمن دائرته، وداخل إطاره وحدوده، واختلاف الرأي لا يفسد للودّ قضية ـ كما يقول الشاعر ـ.

لكن رجال الدين هم من البشر، وتعتمل في نفوسهم ـ كسائر البشر ـ مختلف النوازع الشهوانية، وقد يضعف بعضهم أمامها، وتخونه إرادته، فينحرف عن منهج الله، ويستجيب لدواعي الشهوة والأهواء، فهو ليس معصوماً عن الخطأ والانحراف.

ولأن هذا الاحتمال وارد وواقع في تاريخ الرسالات الإلهية، ولأنه يشكل خطوة كبرى في المجتمعات المتدينة لذلك تحدثت عنه النصوص

---

(١) الشريف الرضي. نهج البلاغة، قصار الحكم، رقم ٧٣.

الدينية، ودعت المؤمنين لكي يتحلوا باليقظة والانتباه، في تعاطيهم وتعاملهم مع رجال الدين، فلا يسلمون لهم القياد دون وعي، ولا يقلدونهم تقليداً أعمى، ولا يقدسونهم تقديساً مطلقاً، فهم معرضون ـ كغيرهم من الناس ـ للخطأ والانحراف، وليست لهم حصانة خاصة، تعفيهم من تبعات الذنوب والآثام.

ولنتأمل بعض النصوص الواردة في الكتاب والسنة، حول التحذير من انحراف رجل الدين، ومدى الخطورة التي يشكلها بانحرافه.

نماذج يذكرها القرآن

يتعاطى بعض المتدينين مع رجل الدين بمثالية ساذجة، وبساطة متناهية، فيأخذون قوله دون تفكير، ويقدسون أعماله دون نقاش، بل ويرفضون أن يتجرأ أحد على انتقاده أو مناقشته، وإذا ما انكشف لهم منه خطأ صارخ فاضح، استعصى عليهم تبريره، فانهم يصابون بهزة عميقة وصدمة كبيرة، وكأن ما حدث لم يكن محتملاً ولا متوقعاً.

لمثل هؤلاء يتحدث القرآن الكريم، عن بعض النماذج، ممن خانوا أمانة العلم والدين، في الأمم السابقة، ليكون المجتمع الإسلامي على حذر من تكرار مثل هذه النماذج.

١. يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ

لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

إنها قصة عالم وصل إلى رتبة متقدمة من العلوم والمعارف الدينية ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ فكان العلم ملتصقاً به، محيطاً بجوانب شخصيته، إحاطة الجلد بالبدن، لكنه مع سعة معرفته، وعمق علمه، سقط في هاوية الانحراف. ويعبر القرآن عن خيانة العالم للمعرفة التي تحتضنه وتحيطه، بالانسلاخ ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ والانسلاخ خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ عنه.

وكيف ينفلت العالم، وينفصل عن مؤدى علمه ومعرفته، مع أنه عاش في أحضان العلم، وتشربت نفسه بالمعرفة؟

لأن العلم لا يعني العصمة، والإجبار على الطاعة، فهو خلاف إرادة الله ومشيئته، بأن يكون الإنسان حرًّا مختاراً، في سلوكه وتصرفاته، ليكون جديراً بالثواب، مستحقاً للعقاب ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ فالعلم يهيئ الإنسان للتحليق والارتفاع في سماء القيم، إن أراد هو ذلك، أما إذا خانته إرادته، وسيطرت على نفسه الأهواء والشهوات، والانشدادات المادية، فـ ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فإنه يتحمل مسؤولية سقوطه وانحداره.

وماذا يحصل حينئذٍ؟

إنه التورط والتوغل في حضيض الانحراف والسقوط، لأن غير العالم قد يردعه الوعظ والتوجيه، أما العالم، فلمعرفته بالمواعظ والتوجيهات،

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥ ـ ١٧٦.

تصبح لديه ما يشبه المناعة من تأثيرها، كما يحدث لبعض الميكروبات في الجسم، التي تستعصي على بعض أنواع المضادات الحيوية في حالة تكرار استخدامها.

لذلك يشبِّه القرآن الكريم العالم المنحرف بالكلب اللاهث، الذي يستمر في لهاثه، سواء في حالة مطاردته والهجوم عليه، أو في حالة هدوئه ودعته ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾.

وأمر الله تعالى نبيه أن يقرأ للناس، ويتلو عليهم، خبر هذا العالم المنحرف وقصته، ليكون مثلاً ونموذجاً، يدفع الناس للتفكير في تعاملهم وتعاطيهم مع رجال الدين ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٢. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[١].

وحديث القرآن عن انحرافات علماء اليهود والنصارى، ليس في سياق التشهير بهم فقط، وإنما ليستفيد المسلمون دروساً وعبراً من أوضاعهم. ولدقة القرآن وموضوعيته فإنه لم يصدر حكماً عامًّا على جميع زعاماتهم الدينية، وإنما الأكثر منهم، إنصافاً للقلة الملتزمة المتورعة منهم.

وقد يكون في الآية الكريمة إشارة إلى ناحية مهمّة، وهي أن رجال الدين، كطبقة متفرغة للعمل الديني، تأخذ نفقاتها من الناس والأموال

---

(١) سورة التوبة، آية: ٣٤.

الشرعية، إزاء قيامهم بواجب الإرشاد والهداية، والدعوة إلى المبادئ والقيم، ولكنهم حينما يقومون بدور معاكس، بممارساتهم الفاسدة المنحرفة، فانهم لا يؤدون الوظيفة التي على أساسها جاز لهم تناول الأموال الشرعية، فيصدق عليهم حينئذٍ انهم ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ لأنهم بدل أن يقودوا الناس إلى طريق الله، يُسيّرون الناس في الاتجاه المعاكس ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٣. يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

فالعلم بالدين يحّمل صاحبه مسؤولية العمل به، فإذا لم يلتزم بذلك ولم ينعكس الدين على سلوكه ومواقفه، فإنه يشبه الحمار الذي يحمل على ظهره مجلدات الكتب العلمية لكنه لا يفقهها ولا يتفاعل مع ما فيها.

وعلماء الدين الذين يتحملّون مسؤولية الرسالات الإلهية، بعلمهم وموقعهم القيادي، إذا ما تخلوا عن القيام بواجبات تلك المسؤولية الخطيرة فإنهم مصداق لهذا المثل السيئ.

تحذيرات من السنة

وفي السنة الشريفة أحاديث كثيرة، تبين خطورة انحراف رجل الدين، وآثار ذلك الانحراف على قضايا الدين وأوضاع الأمة.

---

(١) سورة الجمعة، آية: ٥.

١. فازدواج الشخصية عند العالم المنحرف، حيث يدعو الناس إلى الدين، وهو غير ملتزم بأحكامه، يعرضه لغضب الله تعالى وشديد عذابه.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون: ما أدخلكم النار، وقد دخلنا الجنة لفضل تأديبكم وتعليمكم؟!

فيقولون: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله»[١].

وعنه ﷺ: «من تعلم العلم ولم يعمل بما فيه حشره الله يوم القيامة أعمى»[٢].

وعنه ﷺ: «إن أهل النار ليتأذون بريح العالم التارك لعلمه، وأن اشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله عز وجل، فاستجاب له وقبل منه، وأطاع الله عز وجل فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي النار، بتركه علمه وإتباعه الهوى»[٣].

وعنه ﷺ: «رأيت ليلة اسري بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟

فقال: الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟!»[٤].

---

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٧٤صفحة٧٦.

(٢) المصدر السابق.صفحة١٠٠.

(٣) المصدر السابق. ج٢صفحة١٠٦.

(٤) الألباني، محمد ناصر الدين. سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج١صفحة٥٢٢.

وعنه ﷺ: «الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: يُبدأ بنا قبل عبدة الأوثان؟ فيقال لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم»[١].

٢. وعلى الجمهور أن يحذر من العلماء غير الملتزمين، فلا يمنحهم الثقة ولا يجعلهم في موقع القيادة والإتباع، ولا يعتبرهم مصدراً ومرجعية في شؤون الدين.

في الحديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام،قل لعبادي: لا يجعلوا بيني وبينهم عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدّهم عن ذكري، وعن طريق محبتي ومناجاتي، أولئك قطّاع الطريق من عبادي»[٢].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إذا رأيتم العالم محبًّا للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يحوط ما أحب»[٣].

٣. والطبع، فإن انحراف رجل الدين له مضاعفاته وآثاره الخطيرة، على الدين والمجتمع، لذا جاءت النصوص والأحاديث تنبه إلى ذلك.

قيل لرسول الله ﷺ: أيّ الناس شر؟

قال ﷺ: «العلماء إذا فسدوا»[٤].

وعن الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام: «زلة العالم كانكسار السفينة

(١) الريشهري، المحمدي. ميزان الحكمة، ج٦ صفحة٥١٤.

(٢) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٧٥صفحة٣١٢.

(٣) المصدر السابق. ج٢صفحة١٠٧.

(٤) المصدر السابق. ج٧٤صفحة١٣٨.

تَغرَق وتُغرِقُ معها غيرها»[١].

عالم الدين بين الاستقامة والانحراف

إذا ما فقد عالم الدين مناعته، وحصانته المبدئية، وضعفت إرادته الإيمانية، عن مقاومة (فيروسات) الأهواء، فستكون نفسه مرتعاً لمختلف النزعات الشهوانية والتوجهات الانحرافية.

ومن هذه الثغرة الخطيرة الواسعة، تهب رياح الخلافات والصراعات في أوساط رجال الدين.

أولاً: تنمو النزعة الأنانية الذاتية، على حساب المبدأ والمصلحة العامة، فالفتاوى والآراء والمواقف حينئذٍ تتأثر بحسابات المصلحة الشخصية، وتصبح خاضعة لمعادلة الربح والخسارة.

فلا ينظر رجل الدين الأناني إلى الأمور والأحداث والأشخاص، نظرة موضوعية على أساس مقاييس الحق والباطل، وإنما بمنظار مصلحته ومنفعته العاجلة، وهذا قد يؤدي به إلى الاصطدام برجال الدين المبدئيين المخلصين، كما قد يسبب له الصراع حتى مع أشباهه من رجال الدين الأنانيين لأن المصالح تختلف وتتخالف.

وقد تحدث القرآن الحكيم في آيات عديدة، محذراً ومنددا بأولئك المساومين على المبادئ، والمتخلين عن الحقائق، من أجل المصالح مادية ضئيلة محدودة، لأن أيّ ثمن في مقابل الحق تافه حقير.

---

(١) عبد الواحد الآمدي. غرر الحكم، ج١ صفحة ٣٨٥.

يقول تعالى: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ*وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

وتشير الآية الكريمة إلى أسلوبين خبيثين تستخدمهما عادة هذه الفئة: أسلوب تزوير وتزييف الحقائق بإلباس الباطل الذي يطرحونه صورة الحق وعنوانه، لينطلي على الناس. وإلباس الحق الذي يطرحه غيرهم صورة الباطل وعنوانه ليصدوا الناس عنه.

والأسلوب الآخر: هو كتمان الحقائق والسكوت عنها، مع معرفتهم بها.

ويقول تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[٣].

فمن أجل المصالح المادية الزائلة يختلقون الفتاوى، ويبتدعون الآراء وينسبونها لله سبحانه.

ورجل الدين المصلحي ينظر إلى سائر رجال الدين كمنافسين له، ينتابه الحسد إذا ما رأى تقدماً أو تفوقاً لأحدٍ منهم، ويحاول التقليل من

---

(١) سورة البقرة، الآيتان ٤١ ـ ٤٢.

(٢) سورة التوبة، آية ٩.

(٣) سورة البقرة، آية ٧٩.

شأنه أمام الناس، ويتصيد أخطاءه ويتابع عثراته ليشيعها في الجمهور، وقد يسعى بكل جهده لعرقلة طريق الآخرين من رجال الدين إلى التقدم.

ولعل هذا الجانب من أهم أسباب بروز الخلافات بين رجال الدين، حيث إن ثقة الناس والتفافهم حول رجل الدين، هما المكسب الرئيس له، والرصيد الأساس لدوره وقيمته، فالتنافس يكون على هذه الثقة والاتّباع بين رجال الدين، وإذا ما خاصم أحدهم الآخر، فإن أهم ضربة يوجهها إليه هي إسقاط أو إضعاف شعبيته وسمعته عند الناس عبر نقد آرائه، والتشهير بأخطائه.

وهناك حديث شريف يبيّن أن الحسد هو المرض الأكثر شيوعاً في أوساط العلماء، وأنه مدخل أكثرهم إلى نار جهنم، فعن رسول الله ﷺ: «ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة، قيل: يا رسول الله من هم؟ فعّد منهم: والعلماء بالحسد»[1].

ومثله روي عن الإمام علي عليه السلام: «إن الله عز وجل يعذّب ستة بست ... والفقهاء بالحسد»[2].

ثانياً: من الطبيعي وجود حالة من التنوع والتعددية في كل مجتمع، بأن يتشكل من اكثر من قومية، أو تختلف الأديان والمذاهب التي ينتمي إليها أبناؤه، وقد تتعدد المدارس الفكرية ضمن الدين الواحد

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣صفحة٢٧٦.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٢صفحة١٠٨.

أو المذهب والواحد، هذا فضلاً عن تنوع القبائل، أو الطبقات الاجتماعية، أو الانتماءات الحزبية والسياسية. وعادة ما يصاحب هذا التنوع والتعدد نوع من الحساسيات والخلافات والحواجز والفواصل، بين أبناء المجتمع الواحد قد يصل إلى حد التنازع والصراع.

ورجل الدين، بما يمثل من موقع ودور مبدئي، يجب أن يتسامى على تأثيرات تلك الحساسيات والحواجز، ويكون داعية للوحدة والتعاون، ورائداً للعدالة والإنصاف، لكن ذلك مشروط بنزاهة رجل الدين وصدقية التزامه المبدئي، فإذا ما تسرب الانحراف إلى نفسه، فسيقع تحت تأثيرات الواقع الاجتماعي، ويكون خاضعاً لتفاعلاته، بل قد يصبح أداة وواجهة في معادلة الصراع، بما يشكله من ثقل ونفوذ بعنوانه الديني. وحينئذ يستغل الدين كوقود في معارك الصراع القومي أو الطائفي أو القبلي أو الحزبي أو الطبقي.

وكم من معركة دامية، وفتنة مرعبة، سالت فيها الدماء،وهتكت فيها الحرم والأعراض، بين أبناء الأمة، حصلت بتحريض أو تبرير من رجال دين منحرفين؟.

ثالثاً: إن القوى التي تريد الهيمنة على المجتمع، والسيطرة على قدراته، لا تجد لخدمة نفوذها ومصالحها افضل من رجل دين مصلحي، يوفر لممارساتها الغطاء الشرعي، ويكون رأس حربتها باسم الدين في مواجهة المخالفين والمعارضين.

وتعطيه في المقابل شيئاً من فتات موائدها، أو تمنحه منصباً على

هامش سلطاتها! ولعل قسطاً لا بأس به من الخلافات والنزاعات داخل الساحة الدينية تحركه قوى خارجية معادية، أو داخلية متسلطة، تستغل بعض العناصر المصلحية من رجال الدين.

وقد تتجه بعض القوى والجهات إلى دس بعض العناصر التابعة لهم بالأساس في أوساط رجال الدين، للقيام بمهمات الاستقطاب والإرباك، مستغلة ضعف الإدارة والتنظيم لدى المؤسسات الدينية، وتواضع التفكير، وسذاجة التعاطي، لدى بعض الزعامات القيادات الدينية.

بالطبع فإن أيّ رجل دين مبدئي لا يبيع آخرته بدنياه، ولا يساوم على مصلحة الدين والأمة.

الفصل الخامس

أخلاقيّات الاختلاف العلمي

إذا كان الاختلاف العلمي في القضايا الدينية أمراً لا يمكن تلافيه، إلا أن التعاطي والتعامل مع هذا الأمر يختلف من حالة إلى أخرى، فقد يكون هذا الاختلاف سبباً لاستثارة الأذهان والعقول، وباعثاً لتنشيط حركة الفكر والاجتهاد، وتوسعه على الناس بتعدد الخيارات والحلول أمامهم في بعض المسائل.

وقد يتحول هذا الاختلاف العلمي عن مساره الإيجابي ليصبح عنصراً سلبياً، يغذي حالة التفرقة والنزاع، وأرضية تنمو فيها أشواك العداوة والخصام.

فلا بدّ من وجود ضوابط فكرية، وأخلاقيات سلوكية، تحكم تعاطي العلماء فيما بينهم، وخاصة عند مواقع الاختلاف العلمي. والصفحات التالية استعراض وبحث لما بدا لي أنه من أهم الأخلاقيات والضوابط التي تنظم حالة الاختلاف العلمي.

الاعتراف بحق الاختلاف ووجود الرأي الآخر

كيف يتكوّن رأي علمّي في أيّ قضية شرعية عند أيّ عالم من العلماء

فيفتي به ويعتبره رأياً شرعياً وحكماً دينياً؟

لا شك أن السبيل الوحيد لذلك هو الاجتهاد وإعمال الفكر والنظر، بالرجوع إلى الكتاب والسنة، وبدراسة واستقراء آراء الأئمة، والعلماء السابقين، فالوحي لم ينزل ولا ينزل على أحد بعد رسول الله ﷺ.

والاجتهاد باب مشرع، وطريق مفتوح لجميع المؤهلين، فلا يمكن لعالم أن يعتبر نفسه وحيد دهره الذي يجوز له الاجتهاد.

وحينما يمارس أيّ عالم مهمة الاجتهاد وفق ضوابطها الشرعية، فسيرى نفسه ملزماً بنتائج اجتهاده، باعتبارها تمثل رأي الشرع والدين في نظره.

وهذا ينطبق على غيره أيضاً، فكما جاز له هو الاجتهاد، وصح له الالتزام بنتائجه، فذلك جائز وصحيح في حق غيره أيضاً، فلا يمكن التفكيك ولا الترجيح بلا مرجح بينهما.

من هنا اتفقت كلمة العلماء على حجّية رأي المجتهد عند نفسه.

«إن كلمة الإعلام تكاد تتفق على حجية رأيه، المجتهد، ولزوم العمل به، وعدم جواز رجوعه إلى الغير ...إذ المجتهد إذا اعمل ملكته وانتهى إلى رأي، فهو إما عالم بالحكم الواقعي علماً وجدانياً أو علماً تعبدياً ـ بواسطة جعل الشارع للطريقية أو الحجية ـ أو يكون عالماً بإحدى الوظيفتين الشرعية أو العقلية...ومع فرض حصول العلم لا يبقى مجال للتصرف الشرعي، فلا يمكن أن يقال للمجتهد العالم بالمسألة: إنك لا يسوغ لك أن تعمل بعلمك، وعليك الرجوع إلى

الغير واستشارته فيما تراه حاصلاً لديك من الواقع ...أما جواز إفتائه على وفق ما وصل إليه من رأي، فهو أيضاً لا يقتضي أن يكون موضعاً لإشكال، لما تقدم بيانه من أن من لوازم الحجية العقلية جواز نسبة مؤدى ما قامت عليه إلى مصدرها من شارع أو عقل، وليس المراد من الفتوى إلا الإخبار عما يراه من حكم أو وظيفة»[١].

ومع وضوح هذه المعادلة عقلاً، وإقرارها شرعاً، إلا أن البعض من العلماء يتنكر لها، ويتمرد عليها. فيعطي لنفسه الحق أن يجتهد، وأن يعتبر نتاج اجتهاده رأياً شرعياً، ثم ينكر على الآخرين ممارسة هذا الحق، بدعوى أن ما وصل إليه من رأي هو الحق والصواب، وبالتالي فإن الرأي المخالف هو باطل وخطأ.

ولكن أصحاب الرأي الآخر لديهم القناعة نفسها أيضاً، بأن رأيهم هو الحق والصواب، والرأي المخالف هو باطل وخطأ.

ولا مجال هنا إلا بالاعتراف بحق الاختلاف، ووجود الرأي الآخر، والخطأ والصواب احتمالان يردان على كل رأي، وقد يكونان نسبيين في بعض الآراء، والله تعالى هو الأعلم بحقائق الأمور والأحكام، وجميل جدًّا ما تعارف عليه العلماء من إنهاء فتاواهم بعبارة (والله اعلم).

ويضرب لنا الإمام علي بن أبي طالب أروع مثل في تعامله مع الرأي الآخر، في المسائل الدينية، فهو مع مقامه العلمي الشامخ، الذي لا

---

(١) السيد محمد تقي الحكيم. الأصول العامة للفقه المقارن، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م، (بيروت: دار الأندلس)صفحة٦٠٩ ـ ٦١١.

يطاوله فيه أحد، ومع مكانته العظيمة التي اختص بها عند الله ورسوله، حيث قال له رسول الله ﷺ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[١].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أقضاهم عليّ»[٢].

إلا أنه حينما تولى الخلافة لم يمنع الناس من صلاة نافلة رمضان جماعة في المسجد، (صلاة التراويح)، بل سمح لهم بذلك مع أنه لا يرى ذلك من الناحية الشرعية، كما هو رأي أئمة أهل البيت جميعاً.

فقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «لما قدم أمير المؤمنين عليه السلام، الكوفة، أمر الحسن بن علي أن ينادي في الناس: لا صلاة في شهر رمضان في المساجد جماعة، فنادى في الناس الحسن بن علي عليه السلام، بما أمره به أمير المؤمنين عليه السلام فلما سمع الناس مقالة الحسن بن علي، صاحوا: واعمراه، واعمراه، فلما رجع الحسن إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال له: ما هذا الصوت؟ فقال: يا أمير المؤمنين يصيحون: واعمراه، واعمراه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: قل لهم صلوا»[٣].

في رواية أخرى: «لما كان أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة، أتاه الناس فقالوا له: اجعل لنا إماماً يؤمنا في رمضان، فقال لهم: لا، ونهاهم أن

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري، باب (مناقب علي بن أبي طالب)، مسلم بن الحجاج القشيري. صحيح مسلم، باب (من فضائل علي بن أبي طالب)،ج٧،صفحة١٢٠.

(٢) أبو الحسن الندوي. المرتضى، ١٩٨٩م، (دمشق: دار القلم)صفحة١٠٣.

(٣) محمد بن الحسن الطوسي. تهذيب الأحكام ج٣، الطبعة الثانية ١٩٥٩م، (النجف: مطبعة النعمان)صفحة٧٠.

يجتمعوا فيه، فلما أمسوا جعلوا يقولون: ابكوا رمضان، وارمضاناه، فأتى الحارث بن الأعور في أناس فقال: يا أمير المؤمنين، ضج الناس وكرهوا قولك، قال: فقال عند ذلك: دعوهم وما يريدون ليصّل بهم من شاءوا»[١].

وروي أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب «لقي رجلاً فقال: ما صنعت ـ يعني في مسألة كانت معروضة للفصل فيها ـ فقال الرجل: قضى عليّ وزيد بكذا.. فقال عمر: لو كنت أنا لقضيت بكذا.. فقال الرجل: فما يمنعك والأمر إليك؟ قال: لو كنت أردك إلى كتاب الله، أو إلى سنة نبيه ﷺ لفعلت، ولكني أردك إلى رأي، والرأي مشترك»[٢].

وسئل الشيخ ابن تيمية: عمن ولي أمراً من أمور المسلمين، ومذهبه لا يجوّز (شركة الأبدان) فهل يجوز له منع الناس من العمل بها؟

فأجاب: ليس له منع الناس من مثل ذلك، ولا من نظائره مما يسوغ فيه الاجتهاد، وليس معه بالمنع نص من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع، ولا ما هو في معنى ذلك[٣].

وحق الاختلاف ووجود الرأي الآخر مصون، بغض النظر عن قلة أو كثرة أصحابه واتباعه، يقول الدكتور القرضاوي: ويقول بعض الاخوة: أن الرأي الذي ينفرد به فقيه أو اثنان خلافاً لجمهور الأمة،

---

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي. تفصيل وسائل الشيعة، ج٨، صفحة٧١.

(٢) الدكتور يوسف القرضاوي. الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، صفحة٧١.

(٣) المصدر السابق. صفحة٦٩.

يجب أن لا يعتد به ولا يعول عليه.

وقال غيرهم: إن ما خالف المذاهب الأربعة التي تلقتها الأمة بالقبول، يجب أن يرفض ولا يقام له اعتبار.

والحق أن هذا كله لا يقوم عليه دليل من كتاب أو سنة.

فالإجماع الذي هو حجة ـ على ما قيل فيه ـ هو اتفاق جميع المجتهدين على حكم شرعي، ولم يقل أحد: انه اتفاق الأكثرية، أو الجمهور، فالأمر ليس أمر تصويت بالعدد.

صحيح أن لرأي الجمهور وزناً يجعلنا نمعن النظر فيما خالفه، ولا نخرج عنه إلا لاعتبارات أقوى منه، ولكنه ليس معصوماً على كل حال.

وكم من صحابي انفرد عن سائر الصحابة برأي لم يوافق عليه سائرهم، ولا يضره ذلك.

وكم من فقهاء التابعين من كان له رأي خالفه آراء الآخرين، ولم يسقط ذلك قوله، فالمدار على الحجة لا على الكثرة.

وكم من الأئمة الأربعة من انفرد عن الثلاثة بآراء وأقوال، مضى عليها أتباع مذهبه مؤيدين ومصححين.

ومذهب أحمد بن حنبل وهو المذهب المشهور بإتباع الأثر قد عرف بـ (مفرداته) التي نظمها من نظم، ألف فيها من ألف، وغدا من المعروف المألوف أن يقرأ الباحث فيه هذه العبارة: (وهذا من مفردات المذهب).

والمذاهب الأربعة، على مالها من اعتبار وتقدير لدى جمهور الأمة، ليست حجة في دين الله، إنما الحجة ما تستند إليه من أدلة شرعية، منقولة أو معقولة.

وما يقال عن بعض الآراء: إنها شاذة أو مهجورة أو ضعيفة، فهذا لا يؤخذ على إطلاقه وعمومه، فكم من رأي مهجور أصبح مشهوراً، وكم من قول ضعيف في عصر جاء من قواه ونصره، وكم من قول شاذ في وقت هيأ الله له من عرف به وصححه وأقام عليه الأدلة، حتى غدا هو عمدة الفتوى[١].

وجميل جدًّا ما ينقل عن الإمام الشافعي انه قال: «رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»طط[٢].

الاطلاع والانفتاح على الرأي الآخر

المهمة الأساس والغاية الكبرى لرجل الدين، هي معرفة الحقائق الدينية والأحكام الشرعية، على حقيقتها وواقعها.

والآراء العلمية المختلفة في أيّ مسألة اعتقادية أو فقهية، إنما هي احتمالات وأوجه لتلك المسألة، فقد يكون أحد تلك الآراء مصيباً لها بشكل كامل، أو بشكل نسبي.

ومن اجل أن يتأكد العالم من صحة اجتهاده، وصواب رأيه، لا بدّ له من الاطلاع على جميع الاحتمالات والوجوه الواردة في الموضوع. يقول

---

(١) المصدر السابق،صفحة٧٣ ـ ٧٤.

(٢) المصدر السابق،صفحة٩٨.

العلامة الشاطبي في كتابه الموافقات:

«فعن قتادة: من لم يعرف الاختلاف لم يشم أنفه الفقه.

«وعن هشام بن عبيد الله الرازي: من لم يعرف اختلاف القراءة فليس بقارئ، ومن لم يعرف اختلاف الفقهاء فليس بفقيه.

«وعن عطاء: لا ينبغي لأحد أن يفتي الناس حتى يكون عالماً باختلاف الناس، فإنه إن لم يكن كذلك ردّ من العلم ما هو أوثق من الذي في يديه.

«وعن مالك: لا تجوز الفتيا إلا لمن علم ما اختلف الناس فيه»[١].

ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل: «لا ينبغي لأحد أن يفتي إلا أن يعرف أقاويل العلماء في الفتاوي الشرعية، ويعرف مذاهبهم..» مثل هذا ما رواه ابن القيم عن رواية ابن حنبل: «ينبغي لمن أفتى أن يكون عالماً بقول من تقدم وإلا فلا يفتي»[٢].

وتبعاً لاهتمام علماء السلف بالاطلاع على مختلف الآراء، ودراستها ومناقشتها، وُلِدَ علم جديد أطلق عليه (الفقه المقارن) أو (علم الخلاف) وعرفوه بأنه «علم يقتدر به على حفظ الأحكام الفرعية المختلف فيها بين الأئمة أو هدمها بتقرير الحجج الشرعية وقوادح الأدلة»[٣].

---

(١) أبو إسحاق الشاطبي. الموافقات في أصول الشريعة ج٤، الطبعة الأولى ١٩٩١م، (بيروت: دار الكتب العلمية)صفحة١١٦.

(٢) الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني. دراسات في الاختلافات الفقهية، ١٩٧٥م، (حلب: مكتبة الهدى)صفحة١٥٩.

(٣) محمد تقي الحكيم. الأصول العامة في الفقه المقارن، الطبعة الثانية ١٩٧٩م، (بيروت: دار الأندلس)صفحة١٣.

وأصبحت لدينا مكتبة علمية، تزخر بالمؤلفات والمصنفات المتخصصة في نقل الآراء المتعددة والمختلفة، في موضوع بعينه أو في جميع أبواب الفقه، ككتاب (اختلاف الفقهاء الكبير والصغير) لأحمد بن نصر المروزي، وكتاب (الاختلاف في الفقه) لأبي يحي زكريا الساجي، وكتاب (اختلاف الفقهاء) للإمام محمد بن جرير الطبري.

وللشيخ محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) موسوعة مهمّة تقع في ثلاثة مجلدات، بعنوان (كتاب الاختلاف) طبع أخيراً طبعة جديدة محققة من قبل مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين في قم سنة ١٤٠٧هـ.

كما إن الاطلاع والانفتاح على الرأي الآخر، يتيح للعالم فرصة الدراسة والتقويم لذلك الرأي ولمستند صاحبه وأدلته، فيكون موقفه من الرأي الآخر معتمداً على المعرفة والدراية.

وهذا يستدعي أن يكون تعرّف على الرأي الآخر من مصادره الصحيحة والأساس، لا أن يؤخذ من الإشاعات والتقولات غير الموثقة، أو من الجهات المضادة والمناوئة.

فمما يؤسف له اعتماد البعض من العلماء، في تقويمه وانطباعاته عن الآخرين المخالفين له في الرأي والتوجه، على ما يقوله المعادون لهم، كما هو ملحوظ في الكثير من كتب الجدل المذهبي والنزاع الطائفي.

ملحوظة على كتاب

قبل أيام كنت أطالع في الجزء السابع من كتاب (الفقه الإسلامي

وأدلته) للدكتور وهبة الزحيلي، رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق، حول مسألة فقهية من مسائل كتاب النكاح، الفصل الثالث، المحرمات من النساء أو الأنكحة المحرمة، ولفت نظري عند ذكره لحرمة المرأة الخامسة لمتزوج بأربع سواها قوله: «لا يجوز للرجل في مذهب أهل السنة أن يتزوج أكثر من أربع زوجات في عصمته في وقت واحد، ولو في عدة مطلقة» إلى أن يقول: «وذهب الظاهرية والإمامية إلى انه يجوز للرجل أن يتزوج تسعاً، آخذاً بظاهر الآية: ﴿مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ فالواو للجمع لا للتخيير، أي يكون المجموع تسعة»[١].

وما نسبه الدكتور الزحيلي إلى الشيعة في هذه المسألة، هو نموذج للاعتماد على النقولات والإشاعات، دون الرجوع إلى مصادر الجهة ذاتها.

فمصادر الشيعة في التفسير والحديث والفقه، مجمعة على عدم جواز الزواج من أكثر من أربع زوجات بالزواج الدائم في وقت واحد كما هو رأي أهل السنة.

فمن أقدم التفاسير الشيعية جاء في (التبيان في تفسير القرآن) للشيخ محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠)، ما يلي: «ومن استدل بهذه الآية مثنى وثلاث ورباع على أن نكاح التسع جائز فقد أخطأ لأن ذلك خلاف الإجماع... فتقدير الآية ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ

---

(١) الدكتور وهبة الزحيلي. الفقه الإسلامي وأدلته، ج٧،صفحة١٦٦.

مَثْنَى وَثُلاثَ﴾، فثلاث بدل من مثنى، ورباع بدل من ثلاث»[١].

وجاء في (مجمع البيان في تفسير القرآن) للشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي، من أعلام القرن السادس الهجري، ما يلي: «وقوله: ﴿مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾: معناها اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، فلا يقال إن هذا يؤدي إلى جواز نكاح التسع، فإن اثنتين وثلاثة وأربعة تسعة، لما ذكرناه، فإن من قال دخل القوم البلد مثنى، وثلاث، ورباع، لا يقتضي اجتماع الأعداد في الدخول، ولأن لهذا العدد لفظاً موضوعاً، وهو تسع، فالعدول عنه إلى مثنى وثلاث ورباع نوع من العيّ، جلّ كلامه عن ذلك وتقدس»[٢].

والى أواخر التفاسير الشيعية حيث جاء في (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل) للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ما يلي: «ولا بدّ من التنبيه إلى أن (الواو) هنا أتت بمعنى (أو) فليس معنى هذه الجملة هو انه يجوز لكم أن تتزوجوا باثنتين وثلاث وأربع ليكون المجموع تسع زوجات، لأن المراد لو كان هذا لوجب أن يذكر بصراحة فيقول: وانكحوا تسعاً، لا أن يذكره بهذه الصورة المتقطعة المبهمة، هذا مضافاً إلى أن حرمة الزواج بأكثر من أربع نسوة من ضروريات الفقه الإسلامي، وأحكامه القطعية المسلمة»[٣].

---

(١) محمد بن الحسن الطوسي. التبيان في تفسير القرآن، ج٣،صفحة١٠٧.

(٢) الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٣،صفحة٨٤.

(٣) ناصر مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ج٣، الطبعة الأولى ١٩٩٢م (بيروت:مؤسسة البعثة)صفحة٨٤.

ومصادر الفقه الشيعية أيضاً كلها تنص على ذلك، فمن أين أتى الدكتور الزحيلي بهذه النسبة للشيعة؟ فهو لم ينسبها إلى مصدر محدد، ولم يقل: إن عالماً معيناً من الإمامية يقول بذلك، بل نسبها للإمامية بأجمعهم، وأرسل النسبة إرسال المسلمات، وحينما راجعت كشف المصادر التي اعتمدها للفقه الشيعي والمذكورة في المجلد الأخير، وجدت أنها أربعة مصادر هي (الكافي للكليني) وهو كتاب حديث لا فقه و(المختصر النافع في فقه الإمامية) و(الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية) و(مفتاح الكرامة) للحسيني العاملي، وبالرجوع إلى هذه المصادر الأربعة تبيّن لي عدم وجود ما يدل على تلك النسبة إلى الشيعة فيها.

ومرة أخرى أتساءل من أين جاء الدكتور الزحيلي بهذه المسألة، ولا أثر لها في مصادر الشيعة؟ مع انه قد ذكر في تقديم الكتاب حول منهج الكتاب ما يلي: «وهو ليس كتاباً مذهبياً محدوداً، وإنما هو فقه مقارن بين المذاهب الأربعة (الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة) وبعض المذاهب الأخرى أحياناً، بالاعتماد الدقيق في تحقيق كل مذهب على مؤلفاته الموثوقة لديه، والإحالة على المصادر المعتمدة عند اتباعه، لأن نقل حكم مذهب من كتب المذهب الأخرى لا يخلو من الوقوع في غلط في بيان الرأي الراجح المقرر، وقد عثرت على أمثلة كثيرة من هذا النوع»[1].

---

(١) الدكتور وهبة الزحيلي. الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، صفحة٩.

آمل أن يكون ذلك خطأ غير مكرر في موارد أخرى، وأنه قد حدث عن غفلة، كما ينبغي تصحيحه في الطبعات الجديدة للكتاب إن شاء الله.

الحوار مع الطرف الآخر

للحوار دور كبير في توضيح صورة كل طرف أمام الطرف الآخر، وفي استجلاء حقيقة رأيه، وفهم أدلته ومستنداته، كما قد يساهم في تجاوز الحساسيات والحواجز النفسية.

والمشكلة التي يعاني منها الكثير من علماء الدين، هي تحّول الاختلاف في الرأي بينهم فوراً إلى موقف نفسي وشخصي، يبدأ بإساءة الظن في الطرف الآخر، وأن رأيه نابع من الجهل أو المصلحة، وأنه يتعمد الخطأ ومخالفة الحق.

ثم يرّتب على ذلك موقف المقاطعة له، وهجره باعتباره مبتدعاً منحرفاً.

وإني لأتعجب كثيراً من تسرّع بعض العلماء الأجلاّء في اتهام أقرانهم بالبدعة والانحراف، والتحرج عن التعاطي معهم، حتى في حدود المجاملات والعلاقات الإنسانية، لا لشيء إلا لأنهم يختلفون معهم في الرأي.

وفي كتاب (فرائد الأصول) للشيخ مرتضى الأنصاري والمعروف بـ (الرسائل) وهو من الكتب التي تدرس في الحوزات العلمية الشيعية في مجال علم الأصول، ضمن مناهج السطوح العالية وردت قصة غريبة في هذا السياق، وقفت عندها طويلاً أيام دراستي للكتاب مناقشاً

لأستاذي حولها، وكان عالماً جليلا فاضل الخلق، حاول تبريرها لكن دون جدوى.

تقول القصة: «حكى السيد المحدّث الجزائري عمن يثق به: أنه قد زار السيد صاحب المدارك (السيد محمد بن علي الموسوي العاملي صاحب كتاب مدارك الأحكام)، (٩٤٦ ـ ١٠٠٩هـ) المشهد الغروي (النجف الأشرف في العراق) فزاره العلماء وزارهم، إلا المولى عبد الله التستري، فقيل للسيد في ذلك، فاعتذر بأنه لا يرى العمل بأخبار الآحاد، فهو مبدع، ونقل في ذلك رواية مضمونها: إن من زار مبدعاً فقد خرب الدين»[١].

والشيخ عبد الله التستري مرجع وفقيه بارز في عصره، وهو قد بادر لزيارة السيد محمد صاحب المدارك، لكنه لم يرد عليه الزيارة كما فعل مع العلماء الآخرين الذين زاروه، لأنه يستشكل شرعاً في زيارته ويعتبره مبدعاً لأن رأيه العلمي عدم الاعتماد على الأخبار غير المتواترة التي يرويها الآحاد!!

وأعجب من ذلك ما قرأته في حياة الشيخ ملا محمد تقي بن محمد البرغاني القزويني، من كبار علماء قزوين في إيران، وكان عالماً فقيهاً واعظاً عابداً، جاء في ترجمته «إنه يحضر مجلس وعظه كثير من العلماء والطلاب ويكتبون ما يعظ به، وكان كثير العبادة حتى انه كان يذهب إلى مسجده عند منتصف الليل ويبقى حتى طلوع الفجر الصادق، مشتغلاً

(١) مصطفى الاعتمادي. شرح الرسائل، الطبعة الثانية، ج١، (قم: مكتبة العلامة)صفحة ٢٨١.

بالمناجاة والأدعية والتضرع والأنين والتولول والبكاء والتأوه، ويقرأ المناجاة الخمسة عشر غيباً»[١] وقد استشهد على يد البابية البهائية.

هذا العالم كان مختلفاً مع الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي، (١١٦٦ ـ ١٢٤١هـ) الذي سافر إلى قزوين فالتف حوله جمع من العلماء، وذاعت شهرته وصيته هناك، وفي العديد من مناطق إيران.

وتلافياً للخلاف، حاول حاكم مدينة قزوين عقد مجلس حوار ومصالحة بينهما، يقول التنكابني في قصص العلماء: «أراد حاكم المدينة ابن السلطان، ركن الدولة الميرزا علي تقي أن يرفع عن نفسه السوء إذ حصل ذلك في قزوين، وهذا لن يسعد السلطان أبداً، فسعى في تبديل الشقاق إلى وفاق، ودعا العلماء في ليلة إلى الضيافة، ومن بينهم الشهيد (ملا محمد تقي البرغاني) والشيخ (أحمد الأحسائي). وفي المجلس جلس الشيخ في الصدر ثم الشهيد لكن كانت بينهما فاصلة، وعندما وضعوا المائدة وضعوا للشهيد والشيخ سفرة واحدة لكن الشهيد لم يشارك في هذه السفرة، وكان يتناول الغذاء من سفرة أخرى! وعند الجلوس وضع يده على جهة من وجهه المحاذية للشيخ!، وبعد انتهاء الطعام قال الأمير المضيف مفتتحاً الكلام إن الشيخ من رؤوس علماء العرب والعجم واحترامه لازم، والشهيد أيضاً لا يجوز التقصير في احترامه، فيجب قلع كلام المفسدين بين هذين العالمين وقطع شجرة العناد وقمعها.

---

(١) محمد بن سليمان التنكابني. قصص العلماء، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، (بيروت: دار المحجة البيضاء) صفحة٢٦.

«فقال الشهيد: انه لا إصلاح ومصالحة بين الكفر والإيمان، وللشيخ مذهب في المعاد يخالف ضرورة من ضروريات دين الإسلام ومنكر الضروري كافر!! وانقضى المجلس والشهيد اكثر تأكيدا وتشديداً في تكفير الشيخ!!»[١].

ومثل هذه النماذج والقصص متكرر في بعض أوساط العلماء، مع الأسف الشديد حيث تنعدم أجواء الحوار، وتنقطع كل الأواصر الاجتماعية والعلاقات الإنسانية، بمبرر الاختلاف في الرأي.

معطيات الحوار

١. بالحوار يتأكد الإنسان ويتحقق من صحة رأيه وموقفه، فقد تسيطر على ذهنه فكرة، أو يبدو له رأي يرتاح له، غير ملتفت إلى ثغرات تلك الفكرة، أو نقاط ضعف ذلك الرأي، ولكنه حينما يواجه الرأي الآخر، والطرف الآخر، بما لديه من نقد وملاحظة واعتراض على رأيه، وبما يقدمه من رأي بديل، له أدلته وحججه، فيكون ذلك مدعاة له للتفكير والتحقق، مما يؤدي إلى تعميق رأيه وازدياد ثقته في موقفه، أو إلى تراجعه عنه أن اكتشف خطأه.

يقول الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام: «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»[٢].

---

(١) المصدر السابق، صفحة٤٩.

(٢) الشريف الرضي. نهج البلاغة، قصار الحكم، رقم ١٧٣.

٢. بالحوار يقدم الإنسان نفسه ورأيه للآخرين، فيتعرفون حقيقة موقفه، ويطلعون على منطلقاته ومبرراته، فتكون صورته واضحة أمام الآخرين، وتزول الالتباسات والشكوك، يقول الإمام علي عليه السلام: «تكلموا تعرفوا فإن المرء مخبوء تحت لسانه»[١].

وفي المقابل تتاح للإنسان عبر الحوار، فرصة التعرف إلى الآخرين وآرائهم، فيكون انطباعه وتقويمه للرأي الآخر أكثر واقعية وصدقاً.

٣. والحوار هو الطريق الصحيح والأمثل للتبشير بالرأي والموقف الذي يؤمن به الإنسان، ذلك لأن الرأي لا يفرض بالقوة، وإنما بالاقتناع، والذي لا يتحقق بشكل عميق إلا بالحوار.

لذا كان الحوار هو المنطق الأنبياء والرسل والأئمة والمصلحين، حيث كانوا يعرضون رسالات الله، ويبلّغون أحكامه للناس، مع إتاحة الفرصة للنقاش والأخذ والردّ، لكي يندفع الآخر بقناعة وإخلاص لتقبل دين الله وأمره.

يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٢].

الموضوعية وترك التعصب

حينما يبذل كل مجتهد جهده لاستنباط الحكم الشرعي، وتختلف

---

(١) المصدر السابق. قصار الحكم، رقم ٣٩٢.

(٢) سورة النحل، آية ١٢٥.

النتائج التي يصل إليها المجتهدون، وتتعدد آراؤهم في المسألة الواحدة إلى حدّ التضاد، حيث يرى البعض إباحة شيء، بينما يرى آخرون وجوبه، بل قد يكون الأمر دائراً بين الوجوب أو الحرمة، فهنا، أين هو حكم الله الواقعي في المسألة؟

لقد بحث العلماء هذا الموضوع تحت عنوان (التخطئة أو التصويب)، وذهب عدد قليل من العلماء إلى القول بالتصويب، وأطلق عليهم (المصّوبة)، حيث يرون أن نتيجة أيّ اجتهاد هي نتيجة صائبة وأن حكم الله تعالى في المسألة الاجتهادية، هو ما اهتدى إليه المجتهد باجتهاده، وليس لله فيها حكم معين من قبل، فكل ما يصل إليه اجتهاده فهو الصواب، وبهذا ينتهون إلى تصويب كل مجتهد، أو أن لله حكماً معيناً إلا أنه لم يكلف بإصابته، ويكون ما ينتهي إليه منه مصيباً فيه وإن اخطأ[١].

وعمّم بعضهم ذلك، حتى شمل به القضايا العقلية العقائدية، حيث ذهب إلى أن الحق، حتى في العقائد، غير متعين، وأنه يتعدد، وهو ما يصل إليه كل مجتهد باجتهاده، فيكون كل مجتهد حتى في العقليات والعقائد مصيباً [٢].

لكن رأي اغلب علماء الأمة، بمختلف مذاهبها، هو القول بالتخطئة، ومفاده أن لله تعالى أحكاماً معينة في كل مسألة اجتهادية، فمن هداه

(١) محمد بحر العلوم. الاجتهاد أصوله وأحكامه، ١٩٧٧م، (بيروت: دار الزهراء) صفحة٢٠٢.

(٢) المصدر السابق، صفحة٢٠١.

اجتهاده إلى ذلك الحكم فقد أصاب، وإلا فهو مخطئ، وهو معذور ومأجور في الحالين.

وبناء على ذلك فانه حين تتعدد آراء المجتهدين في مسألة ما، فهناك احتمالان لا ثالث لهما:

الاحتمال الأول: إن جميع تلك الآراء خاطئة، لا يعبّر شيء منها عن الحكم الشرعي.

الاحتمال الثاني: إن رأياً واحداً فقط من بين تلك الآراء قد أصاب الحكم الشرعي وما عداه فهو خاطئ.

وإذا كان اختلاف الفتاوى وتعدد الآراء أمراً طبيعياً له مبرراته وأسبابه، إلا انه قد يمكن التقليل من ذلك، وتقريب وجهات النظر، والاتفاق على قسم لا بأس به من به من القضايا الدينية، والمسائل الشرعية، عندما تسود الأجواء العلمية وأوساط العلماء أخلاقيات وضوابط الاختلاف.

وفي طليعة تلك الأخلاقيات والضوابط، الموضوعية في البحث والتجرد والإخلاص للحقيقة، وترك التعصب.

إن من أسوأ الآفات والأمراض التي تضر بالدين والعلم، وتفتك بالعلماء، هو مرض التعصب للرأي، بأن يتشبث الإنسان برأيه، ويتمسك بموقفه، وكأنه يمثل وجوده وشخصيته واعتباره.

فهو غير مستعد للمناقشة والحوار، وإذا ما ناقش، فمع التصميم على عدم التنازل عن رأيه، وأن اتضح له مخالفته للحق، ويتمحّل

التبريرات، ويفتعل الأدلة، للدفاع عن رأيه، ويكابر ويعاند حتى مع تجلّي الحقيقة له.

وهذه الصفة السيئة تتنافى مع حقيقة العبودية لله تعالى، حيث يصف الله عباده بقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١].

جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «عن أبي الربيع قال: قلت: ما أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان؟ قال: الرأي يراه مخالفاً للحق فيقيم عليه»[٢].

وقد يتعصب الإنسان لمذهبه، فيتمسك بأي رأي أو فكرة يقرها المذهب، وإن اتضح له مخالفتها للحق، وقد يدافع عن قول لمذهبه أو عن موقف لاتباع مذهبه، دفاع المستميت مع معرفته بخطأ ذلك.

ومع تشكّل الحركات والأحزاب، في الساحة الإسلامية، أصبح لدينا لون جديد من التعصب، هو التعصب الفئوي الحزبي، حيث يتقيد المنتمي بآراء ومواقف فئته وجماعته، وإن كان مخالفاً للشرع أو للمصلحة العامة.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «من تعصّب عصبّه الله بعصابة من نار»[٣].

---

(١) سورة الزمر، الآيتان ١٧ ـ ١٨.

(٢) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٦٩، صفحة ٢٢٠.

(٣) المصدر السابق. ج٧٠، صفحة ٢٨٤.

الاختلاف في القضايا الثانوية

ليس أمام فكر الإنسان حدود، بل يعمل ضمن مساحة واسعة، سعة امتداد الكون والحياة، كما إن كل قضية يمكن أن تكون موضوعاً للرأي الديني، والحكم الشرعي، ضمن دائرة الوجوب، أو الحرمة أو الإباحة، بتقسيماتها المعروفة.

من هنا كانت أرجاء الفكر الإسلامي، والتشريع الإسلامي، رحبة واسعة، تبدأ بما فوق الطبيعة، وما هو خارج الإدراك الحسي المادي للإنسان، وتشمل كل قضايا الوجود والحياة، وتمتد لآفاق المستقبل، ولما بعد الحياة.

فمثلاً في مجال التشريع الإسلامي يصل عدد المسائل الشرعية التي يناقشها الفقهاء إلى ما يزيد على نصف مليون مسألة[١].

وذلك راجع بالطبع إلى تفريعات المسائل وتفاصيلها.

وهناك قصة نقلها الرواة في حياة الإمام محمد الجواد بن علي الرضا عليهما السلام تصلح شاهداً على كثرة التفريعات في المسائل الشرعية.

ففي مجلس عقده المأمون، سابع الخلفاء العباسيين، لامتحان المستوى العلمي للإمام محمد الجواد، الذي كان صغير السن آنذاك، وأُحضر في مقابله قاضي القضاة يحي بن اكثم، فطرح على الإمام الجواد

---

(١) السيد محمد الشيرازي. شهر رمضان شهر البناء والتقدم، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، صفحة ٣٣.

المسألة التالية:

ما تقول أصلحك الله في محرم قتل صيداً؟

وقبل الإجابة ردّ الإمام عليه السؤال، لعرض تفريعات المسألة وتفصيلاتها قائلاً:

قتله في حلّ أو حرم؟

عالماً كان المحرم أم جاهلاً؟

قتله عمداً أو خطأ؟

حراً كان المحرم أم عبداً؟

صغيراً كان أو كبيراً؟

مبتدئاً بالقتل أم معيداً؟

من ذوات الطير كان الصيد أم من غيرها؟

صغار الصيد كان أم من كباره؟

مصراً على ما فعل أو نادماً؟

في الليل كان قتله للصيد في أوكارها أم نهاراً وعياناً؟

محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرما؟

ثم شرع الإمام في تبيين الحكم الشرعي، لكل تفريع من تلك التفريعات[1].

ومع كثرة المسائل الشرعية التي يبحثها الفقهاء، ويُعملون فيها

---

(١) السيد محسن الأمين. أعيان الشيعة، ج٢، صفحة ٣٤.

نظرهم، فإن فرص الاختلاف تزداد في أحكام تلك المسائل.

وكذلك الحال في المجال الفكري العقائدي، فكلما طرأت تساؤلات، واستجدت أفكار، وحصلت تطورات معرفية، اتسع ميدان البحث الفكري، فيتسع معه مجال الاختلاف.

ولأن أحداث العهود الإسلامية الأولى تعتبر مصدراً مؤثراً في الفكر والتشريع الإسلاميين، فقد اهتم العلماء بالبحوث التاريخية، وهنا تختلف الآراء في تقويم الروايات والنقولات، ما فتح أبواب الاختلاف في قضايا التاريخ على مصراعيها.

وإذا كان الاختلاف طبيعياً ومشروعاً، في كلّ تلك الأبعاد الفكرية والتشريعية والتاريخية وسائر مجالات المعرفة...

فإن من غير الطبيعي تركيز الاهتمام على الاختلاف في المسائل الثانوية، والقضايا الجانبية، على حساب ما هو أهم من قضايا الدين، ومصلحة الأمة، حيث نلاحظ نشوب كثير من معارك الخلاف على مسائل ليست ذات أولوية، ينشغل بها الوسط العلمي الديني، وتنقسم على أساسها المجتمعات، بين مؤيد لهذا الرأي أو ذاك.

وبذلك تتزيّف الاهتمامات، وتضيع الأولويات.

نقل لي بعض الإخوة المؤمنين من الهند، عن إحدى مناطقهم، أن مشكلة كبيرة حصلت في تلك المنطقة، قسّمت الناس إلى قسمين متنازعين، منذ عدة سنوات إلى الآن، وسبب تلك المشكلة اختلاف خطيبين، كانا يحييان موسم عاشوراء، وذكرى شهادة الإمام الحسين عليه السلام،

حول مسألة وجود الماء في خيام الحسين ليلة العاشر من المحرم، أو عدم وجوده! حيث تحدث أحد الخطيبين عن أن الماء كان موجوداً، ولا يصح أبداً أن يتعذّر وجود الماء على إمام معصوم، له مكانته المميزة عند الله، وأن القول بعدم وجود الماء، يعني التشكيك في قدرة الإمام وعظمته ومكانته! أما الخطيب الآخر فقد تحدث، على العكس من ذلك، نافياً وجود الماء في خيام الإمام الحسين، بالأدلة التاريخية والنقلية، واعتبر أن إنكار ذلك يعني التقليل من مظلومية الإمام الحسين، والتبرير لأعدائه! وانقسم الناس إلى معسكرين، وحصلت بينهما مناوشات وصدامات، واستمرت حالة الانقسام والفرز إلى الآن!

ومثل ذلك ما عايشناه في بعض مناطقنا من الخلاف على موضوع زواج القاسم بن الإمام الحسن، على بنت للإمام الحسين في اليوم العاشر من المحرم، حيث ورد ذلك في بعض الكتب غير الموثقة والمعتمدة، واعتاد الجمهور على الاحتفاء بهذا الزواج المدعى بصورة مأساوية في اليوم الثامن من المحرم، والمخصص عندهم لذكرى شهادة القاسم بن الحسن، لكن بعض العلماء والخطباء اعترضوا على هذه الرواية وفندوها، وحصل وقتها خلاف شغل العديد من المجالس والخطابات، واستمر لسنوات إلى أن تلاشى وخفت أخيراً.

وقد عاشت الأمة الإسلامية، في أواخر القرن الثاني، وأوائل القرن الثالث للهجرة، فتنة عمياء، عنوانها محنة خلق القرآن، حيت احتدم الجدل والنقاش بين علماء المسلمين، حول تحديد هوية القرآن، هل هو

مخلوق محدث أوجده الله؟ أو هو قديم لانتسابه لله سبحانه؟

وبالرغم من أن نتيجة البحث بالقول بخلق القرآن أو قدمه لا تأثير لها على أصول العقيدة، ولا برامج التشريع، ولا مصالح الحياة، إلا أنها سيطرت على الأجواء العامة لحياة الأمة، حيث تبنتها السلطات الحاكمة آنذاك.

وأصبح الموقف من هذه المسألة حداً فاصلاً بين الإيمان والكفر. يقول أبو عبد الله محمد بن يحيى الدهليّ المتوفى سنة ٢٥٥هـ: «من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر، وبانت منه امرأته، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ولا يدفن في مقابر المسلمين!».

وشاع التكفير حتى عند النساء، كما يروي الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد)، أن امرأة تقدمت إلى قاضي الشرقية، عبد الله بن محمد الحنفي فقالت: إن زوجي لا يقول بمقالة أمير المؤمنين في القرآن، ففرِّق بيني وبينه!!

واتسع الخلاف بين المسلمين من تكفير البعض للبعض، فطائفة تقول: إن من قال القرآن غير مخلوق فهو كافر، وعليه ابن أبي داود وجماعته[١].

لقد نهى رسول الله ﷺ أصحابه أن يخوضوا في أبحاث جدلية كلامية، تشغلهم عن مهمة تركيز الإسلام، وحماية الدعوة، التي كانت تواجه مؤامرات المشركين واليهود آنذاك، كما جاء في سنن أبي ماجه:

---

(١) أسد حيدر. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج١، صفحة٢٠١.

عن عمر وابن شعيب عن أبيه عن جده قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: بهذا أُمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم من قبلكم»[١].

ومرة سأل أبو أحمد الخراساني الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق عليهما السلام: «قال له: الكفر أقدم أم الشرك؟ فرده الإمام، قائلاً: مالك ولهذا؟»[٢].

وحينما استفتى أحد العراقيين عبد الله بن عمر، عن دم البعوض، قال ابن عمر: انظروا إلى أهل العراق، يسألون عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله!

ولا تزال الساحة الإسلامية تعاني من مثل هذه الخلافات والمعارك المفتعلة، حول قضايا جانبية، تشغل بال الأمة عن التحديات الخطيرة التي تواجهها، وهموم الواقع المعاش.

وقبل فترة وجيزة اطّلعت على كتاب طُبع مؤخراً تحت عنوان (الإصابة في تصحيح حديث الذبابة) وهو رد على المشككين في صحة حديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه كله ثم لينتزعه فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء». وبطريق آخر عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «طإن

(١) أبو الحسن الحنفي السندي. شرح سنن ابن ماجه، ج٢، (بيروت: دار الجيل) صفحة٤٤.
(٢) الحسن بن علي بن شعبة الحراني. تحف العقول عن آل الرسول، ج١، صفحة٥٨.

أحد جناحي الذباب سمّ والآخر شفاء، فإذا وقع في الطعام، فأملقوه، فإنه يقدم السمّ، ويؤخر الشفاء»[١].

ولسنا الآن في معرض الكلام عن صحة الحديث أو عدم صحته، وإنما في مدى أهميه الموضوع وتوقيت طرحه.

التزام الآداب واحترام الحقوق

هناك حقوق أقرها الإسلام فيما بين الناس، لتنتظم بها علاقاته الاجتماعية، وليشعروا بإنسانيتهم، وليعيشوا الكرامة والاحترام فيما بينهم.

وهناك آداب سنّها الدين، في التعامل الاجتماعي، تتعمّق بالمحافظة عليها مشاعر المودة والحب، ويزداد التماسك والتآلف، وينال بها كل فرد ما يستحقه من الاحترام والتقدير.

هذه الحقوق الاجتماعية ثابتة للإنسان بما هو إنسان، ولعضويته في المجتمع المسلم، وبغض النظر عن أفكاره وآرائه المختلفة، ما دام محافظاً على حقوق الآخرين، وملتزماً باحترام هوية المجتمع واختياراته.

وتشير بعض النصوص الدينية بصراحة إلى ثبوت هذه الحقوق، وإلى الالتزام بالآداب والأخلاق الإنسانية الإسلامية، حتى مع اختلاف الدين والمذهب والرأي والتوجه.

١. ففي مجال حقوق الأرحام، تؤكد النصوص الدينية أهمية

---

(١) محمد ناصر الدين الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج١، صفحة ٨٥.

المحافظة عليها، حتى مع اختلاف الدين أو المذهب، فالوالدان لا بدّ من احترامهما وبرهما، وإن كانا مشركين، بل وإن كانا يضغطان على الولد المؤمن ليترك إيمانه، فعليه التمسك بإيمانه، وعدم الاستجابة لضغوطهما، لكن مع حسن الأدب والتعامل مع والديه، يقول تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۞ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾[١].

جاء في (تفسير التحرير والتنوير) لابن عاشور: «إن الأمر بمعاشرتهما بالمعروف، شامل لحالة كون الأبوين مشركين، فإن على الابن معاشرتهما بالمعروف، كالإحسان إليهما وصلتهما، وفي الحديث: إن أسماء بنت أبي بكر قالت لرسول الله ﷺ: إن أمي جاءت راغبة أفأصِلُها؟ فقال: نعم صلي أمك، وكانت مشركة، (وهي قتيلة بنت عبد العزى). وشمل المعروف ما هو معروف لهما أن يفعلاه في أنفسهما، وإن كان منكراً للمسلم، فلذلك قال فقهاؤنا: إذا أنفق الولد على أبويه الكافرين الفقيرين، وكان عادتهما شرب الخمر اشترى لهما الخمر، لأن شرب الخمر ليس بمنكر للكافر، فإن كان الفعل منكراً في الدينين فلا يحل للمسلم أن يشايع أحد أبويه عليه»[٢].

وسأل الجهم بن حميد الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال: قلت لأبي عبد الله: تكون لي القرابة على غير أمري، ألهم عليّ حق؟ قال: «نعم،

---

(١) سورة لقمان، الآيتان: ١٤ ـ ١٥.

(٢) الشيخ محمد طاهر ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير، ج٢١، صفحة١٦١.

حق الرحم لا يقطعه شيء، وإذا كانوا على أمرك كان لهم حقان: حق الرحم وحق الإسلام»[١].

وفي رواية أخرى عن معمر بن خلّاد قال: «قلت لأبي الحسن علي الرضا عليه السلام: أدعو لوالدي إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: ادعُ لهما وتصدق عنهما، وإن كانا حيّين لا يعرفان الحق فدارهما، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق»طط[٢].

٢. والذين يجاورون الإنسان، ويعيشون معه في منطقة واحدة، لهم عليه حق الجوار، وقد اهتم الإسلام بتأكيد حق الجار، دون أن يشترط في ثبوت ذلك الحق التوافق الديني أو الفكري، بل هو حق مطلق ثابت لكل جار.

ولرفع هذه الشبهة جاءت النصوص الدينية مؤكدة مراعاة هذا الحق، وإن اختلف معك جارك في العقيدة أو التوجيه.

يقول تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ سورة النساء، الآية ٣٥، حيث ذكر المفسرون أن من معاني ﴿الْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾: أن الجار ذي القربى منك بالإسلام، والجار الجنب: المشرك البعيد في الدين، واستدلوا بما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الجيران ثلاثة: جار له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق

---

(١) محمد بن يعقوب الكليني. الكافي، ج٢، صفحة١٥٧.

(٢) المصدر السابق، صفحة١٥٩.

الإسلام، وجار له حقان: حق الجوار، وحق الإسلام، وجار له حق الجوار، المشرك من أهل الكتاب»[١].

وقد حث الإسلام على الإحسان في معاملة الجار ولو كان غير مسلم، فقد عاد النبي ﷺ ابن جاره اليهودي، وذبح ابن عمر شاة، فجعل يقول لغلامه: أهديت لجارنا اليهودي؟ أهديت لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[٢].

وأغلب النصوص الواردة في حقوق الجار، تتحدث بلغة مطلقة، لتشمل كل من ينسحب عليه عنوان الجار، بغض النظر عن أيّ صفات أخرى.

كقوله ﷺ: «أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً»[٣].

وقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره»[٤].

وقوله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره طاوي، ما آمن بي من بات كاسياً وجاره عاري»[٥].

٣. وقد ضرب الإمام علي بن أبي طالب، عليه السلام، أروع الأمثلة في حفظ

---

(١) الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٣، صفحة٨٣.
(٢) الدكتور وهبة الزحيلي. التفسير المنير ج٥، ١٩٩١م، (دمشق: دار الفكر، دمشق) صفحة٦٧.
(٣) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٦٦، صفحة٣٦٨.
(٤) المحمدي الريشهري. ميزان الحكمة، ج٢، صفحة١٩٣.
(٥) المصدر السابق. صفحة١٩٤.

حقوق الطرف الآخر وإن كان مخالفاً في الرأي والموقف.

ففي أثناء خلافته، وحينما انشق عليه الخوارج، واتهموه في دينه وكفروه، فإنه واجههم في حدود ردعهم عن التخريب، وممارسة الإرهاب، والتزم بمعاملتهم كسائر المواطنين، وإعطائهم حقوقهم الكاملة.

وكان علي، عليه السلام، يقول: «إنا لا نمنعهم الفيء، ولا نحول بينهم وبين دخول مساجد الله، ولا نهيّجهم ما لم يسفكوا دماً، وما لم ينالوا محرماً»(١).

وبذلك ضمن لهم رواتبهم، ونصيبهم من الغنائم والصدقات، وأعطاهم حق إبداء الرأي، وفسح لهم مجال التواجد في الأماكن العامة.

ولم يتعد الإمام على حقوق أحد معارضيه والمخالفين له، بل حفظ لهم حتى حقوقهم المعنوية، حيث لم يقبل بأن يوصفوا بالشرك أو النفاق.

فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن أبيه الإمام محمد الباقر عليه السلام: أن علياً عليه السلام، لم يكن ينسب أحداً من أهل حربه إلى الشرك ولا إلى النفاق، ولكنه كان يقول: «هم أخواننا بغوا علينا»(٢).

وسئل الإمام علي عليه السلام، عن أهل الجمل: أمشركون هم؟

قال: من الشرك فروا.

---

(١) الشيخ حسين علي المنتظري. دراسات في ولاية الفقيه، ج٢ صفحة٨٠٦.

(٢) محمد بن الحسن الحر العاملي. تفصيل وسائل الشيعة، ج١٥، صفحة٨٣.

قيل: أمنافقون هم؟

قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً.

قيل: فما هم؟

قال: «أخواننا بغوا علينا»[١].

ونقل الغزالي في (المستصفى) أن علي بن أبي طالب، استشاره قضاته في البصرة، في القضاء بشهادة أهل البصرة من الخوارج، أو عدم قبول شهادتهم، فأمر بقبولها[٢].

من كل ما سبق يتبين لنا كيف أن الإسلام يوجهنا إلى احترام بعضنا بعضاً، وإلى حفظ الحقوق المتبادلة، والتزام آداب التعامل الاجتماعي، وإن لك يكن هناك توافق في العقيدة والفكر والاتجاه.

فكيف يصح للبعض أن يسيء إلى أخوانه المسلمين، ويسقط حقوقهم، ويتعدى على حرماتهم، لا شيء إلا لأنهم يختلفون معه في المذهب، أو في الانتماء السياسي؟

بل وفي بعض الأحيان تسوء العلاقة بين أبناء المذهب الواحد، ويحصل الهجر والمقاطعة والخصام، للاختلاف في بعض التوجهات الفكرية، أو الآراء الفقهية، أو تعدد مراجع التقليد والإتباع!

ويلجأ البعض إلى تبرير هذا الموقف العدائي بعذر هو أقبح من الذنب، حيث يحكمون على مخالفهم بالخروج من ربقة الإسلام، أو

---

(١) حسين علي المنتظري. دراسات في ولاية الفقيه، ج٢، صفحة٨٠٧.

(٢) عبد الجيل عيسى. ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين، صفحة١٢١.

يتهمونه بالابتداع والضلال، ثم يرتبون على ذلك موقف العداء له، والتشهير به، والنيل من حقوقه المادية والمعنوية.

وهذا ما حصل غالباً في أوساط رجال الدين. لذلك ينقل عن العالم التقي الشيخ عباس القمي، رحمة الله عليه، أنه كان يقول: إني أعف عمّن يستغيبني وهو يدرك أنه يرتكب الخطأ، فأنا أعفو عنه. أما رجل الدين فلأنه قبل أن يستغيبني يبرر ذلك باتهامي بالابتداع أو التجاهر بالفسق حتى تحل له غيبتي!

والغريب في الأمر أن رجال الدين يعرفون، أكثر من غيرهم، تأكيد الإسلام وبيانه أهمية حفظ حقوق المسلم. وقد أحسن العلامة الشيخ مرتضى الأنصاري رحمه الله حينما استرسل في ذكر بعض الروايات والأحاديث، مما ورد من حقوق المسلم على أخيه المسلم، وذلك عند بحثه موضوع الغيبة في كتابه (المكاسب) الذي يدرسه طلاب العلوم الدينية في الحوزات العلمية.

ومن الأحاديث التي أثبتها الحديث التالي:

«عن علي، عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: للمسلم على أخيه المسلم ثلاثون حقاً لا براءة له منها إلا بأدائها أو العفو. يغفر زلته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويعود مرضه، ويشهد ميّته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافئ صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويستنجح مسألته، ويسمت

عطسته، ويرشد ضالته، ويرد سلامه، ويطيب كلامه، ويبر أنعامه، ويصدّق أقسامه، ويوالي وليه، ولا يعاديه، وينصره ظالماً ومظلوماً، فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقه، ولا يسلمه ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه.

«ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أحدكم ليدع حقوق أخيه شيئاً فيطالبه به يوم القيامة، فيُقضى عليه»[1].

فهل نتبخّر كل هذه الحقوق، وتسقط كل الآداب، وتُباح الحرمات، حينما يكون اختلاف في الرأي، ولكل من الطرفين أدلته ومبرراته لرأيه وموقفه؟

ثم أين نحن عن الأحاديث والنصوص التي تحذر من إيذاء المسلم، أو الاعتداء على كرامته، أو شيء من حقوقه؟ كما روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، أنه قال: «من أعان على مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة: آيس من رحمة الله»[2].

مواقع الاتفاق ومساحات الالتقاء

كم هي نسبة الاختلاف العلمي في قضايا الفكر ومسائل الفقه بين علماء الدين؟

---

(١) السيد محمد الشيرازي. إيصال الطالب إلى المكاسب ج٣، ١٤٠٨هـ (طهران: مؤسسة الأعلمي) صفحة١٢٩.

(٢) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٧٢، صفحة١٤٩.

فإذا كانت المعارف الإسلامية تحتوي مثلاً على ألف قضية ومسألة، فكم تشكل القضايا والمسائل المختلف فيها، من نسبة هذا العدد؟

هل هي بمقدار ٥٪ أو ١٠٪ أو ٢٠٪ من هذه القضايا والمسائل؟

أعتقد أن أيّ باحث مطلع على التراث الإسلامي لن يجد أن هذه النسبة، وعلى أكبر الفروض والتقديرات، تزيد على ٢٠٪ من المعارف الإسلامية.

وليست القضايا والمسائل كلها من الأساسيات، بل إن نصف ما يُختلف فيه أو أكثر، هو من القضايا النظرية المجردة، أو العملية الجزئية الجانبية.

وتقل هذه النسبة كثيراً فيما بين العلماء من أتباع المذهب الواحد، وتنخفض لتصل إلى أقل من ٥٪ من القضايا والمسائل.

ولنفترض أن الخلاف العلمي بين عالم وآخر كان في درجته العليا ٢٠٪ فهذا يعني أن مساحة الاتفاق والتطابق هي بنسبة ٨٠٪. لكن المؤسف والمحزن في الأمر، هو تجاهل مساحة الاتفاق الواسعة وتجاوزها، للانشغال بمنطقة الخلاف المحدودة والوقوف عندها.

ففي الثقافة السائدة في أوساط الأمة، هناك تركيز بارز على القضايا والمسائل الخلافية، مع محدوديتها وثانويتها،وهناك إهمال واضح للمتفق عليه مع سعته وأولويته.

١. إن كل علماء الإسلام يتفقون على أصول العقيدة، وهي الإيمان بالله تعالى، ونبوة النبي محمد ﷺ وأنه خاتم الرسل والأنبياء، وبالمصير

إلى الله، والمعاد إليه في يوم القيامة، وإن اختلفوا في بعض تفاصيل هذه العقائد.

كما يتفقون على معالم الشريعة، وأركان الدين، من صلاة وصوم وحج وزكاة وخمس وجهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فهذه المعالم والأركان، يجمع علماء الإسلام على وجوبها، ويتفقون على مقوماتها الأساس، وخطوطها العريضة، وإذا ما كان هناك اختلاف، ففي بعض الجزئيات والتفاصيل من فروع مسائلها.

وينهل العلماء من منهل واحد، هو الكتاب والسنة، حيث يجمع المسلمون على حجيتهما، ولزوم الأخذ بما ورد فيهما، وتحريم أيّ مخالفة أو معارضة لهما.

وإن فهم نصوص الكتاب الكريم، والسنة الثابتة، لا يكون إلا بالتدبر والتأمل والاجتهاد والنظر، مع معذورية كل مجتهد في الأخذ بما وصل إليه نظره واجتهاده.

وضمن كل مذهب من المذاهب الإسلامية، هناك اتفاق على قواعد الاستنباط وضوابط الاجتهاد، والكثير من التفاصيل العقيدية والفكرية.

هذا فيما يرتبط بأصول الدين ومعالم الشريعة.

٢. وحفظ الإسلام، وإعلاء كلمته، وتطبيق أحكامه وتعاليمه، هو الهدف المشترك لجميع علماء الدين.

ومما يهم العلماء جميعاً، حماية مصالح الأمة الإسلامية، وتحسين

أوضاعها، والدفاع عن مقدساتها وحقوقها، وإعزاز مكانتها بين الأمم، لتكون كما أرادها الله تعالى ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

٣.وهناك تحديات قائمة، يشعر بها كل واحد من علماء الدين، وأبرزها طغيان مد الأهواء والشهوات والانجراف المادي، الذي يصد الناس عن التوجه الروحي، والالتزام الديني. والتيارات الفكرية المادية التي تمتلك وسائل الإعلام، ومراكز القوة والقرار، وتعمل بإمكاناتها الضخمة ضد الحالة الدينية.

وهناك قوى العدوان والاستكبار العالمي، التي تعلن مواجهتها للصحوة الإسلامية، وتراها الآن الخطر الأكبر على الحضارة المادية الرأسمالية، وخاصة بعد سقوط المعسكر الشرقي، كما هو مفاد مقولة صموئيل هانتنغتون في (صدام الحضارات).

وهناك القوى المصلحية والمتسلطة في داخل الأمة الإسلامية، التي تمارس الاستبداد والقمع، وتنفذ خطط الأعداء، بوعي أو بغير وعي، وتقلص دور العلماء في التبليغ والدعوة إلى الله.

وهناك أمراض التخلف التي تعاني منها الأمة، وأخطرها الجهل بالدين والحياة.

هذه التحديات الخطيرة القائمة، التي يفترض أن يستشعرها كل رجل دين، يجب أن تكون دافعاً لتقارب علماء الدين، وتعاونهم على مواجهتها.

والأهداف الكثيرة المشتركة التي يؤمنون بها جميعاً ينبغي أن توحد

صفوفهم، وتنظم حركتهم باتجاه تحقيقها.

وما دامت أصول العقيدة، ومعالم الشريعة، ومنابع الأحكام، واحدة، فإنها تشكل أرضية خصبة للتوافق والتلاقي، وتجاوز موارد الاختلاف في الفروع والجزئيات، والمسائل الثانوية والتفصيلية.

والسؤال الذي يشغل بال المخلصين في الأمة هو: لماذا يغفل العلماء ويتجاهلون مساحات التلاقي الواسعة بينهم، ومواقع الاتفاق العريضة، وينشغلون بنقاط الخلاف المحدودة والجانبية؟

إن ذلك يقعد بهم عن مواجهة التحديات القائمة، ويضعفهم تجاهه، كما يمنعهم من تحقيق أهدافهم الكبيرة، ويعرقل سيرهم نحوها، وقد يؤدي النزاع والخلاف بينهم على الفروع والجزئيات إلى ضياع أصول الدين، وأسسه ومعالمه.

والمطلوب، كخطوة أولى، إعادة النظر في طرح القضايا والمسائل الدينية من قبل العلماء، ليكون التركيز والاهتمام بمواقع الاتفاق أولاً، واعتبارها هي الأصل والقاعدة والمنطلق.

وذلك يتيح الفرصة أكثر لتقريب الآراء في موارد الخلاف، التي يجب أن تبقى ضمن حجمها وحدودها الطبيعية، دون تضخيم أو تهويل.

إن البدء من موارد الخلاف والتركيز عليها، قد يحول دون استثمار مساحات اللقاء الواسعة، بما يخلق من حساسيات وانفعالات.

بينما الانطلاق من مواقع الاتفاق، يهيئ النفوس لمعالجة موارد الخلاف بمرونة وموضوعية، مما يتيح فرص التقارب، وتضييق حالات

الاختلاف.

وقد ظهرت في هذا العصر، والحمد لله، مبادرات طيبة، من قبل المخلصين من علماء الأمة، لإعادة صياغة اهتمامات العلماء، باتجاه التركيز على مساحات اللقاء، وتحجيم موارد الاختلاف، كمبادرة (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية) التي انطلقت في القاهرة في الستينيّات من هذا القرن، والمبادرة الجديدة المشابهة لها في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وبـرزت دعـوات وحدوية لمفكرين غُيُر على مصلحة الدين، ومستقبل الأمة، تبشر بـ(فقه الوفاق) الذي يركز على تأصيل وحدة الأمة، ومن أوائل الداعين إلى هذه الفكرة الرائدة، والطرح الوحدوي، سماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين، رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان، حيث أوضح معالم هذا التوجه في محاضرة له ضمن مؤتمر تكريم المفكر الإسلامي الكبير، السيد عبد الحسين شرف الدين، الذي انعقد في بيروت (١٨ ـ ١٩ شباط ١٩٩٣م).

ودعا إلى الفكرة نفسها الدكتور وهبة الزحيلي رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق وكلية الشريعة.

يقول الدكتور الزحيلي: «ولم يتخلص العلماء بالذات، فضلاً عن العوام، من العناية بالخلافات، وضخموا مسائل الاختلاف، وهولوا وقائع النزاع، وتركوا نقاط الخلاف والتلاقي، وصنفوا العديد من المصنفات في بيان أسباب الاختلاف بين الفقهاء، إما بحسن نية ليعذر

الناس العلماء في ما اختلفوا فيه، أو بسبب الولع بتتبّع الخلافات، الأمر الذي أنسى الأمة في خزانة الفكر الإسلامي أو الإنساني، ظاهرة الوفاق والتوحد، ورصدوا الكثير من مسوغات الخلاف، ما جعل المسلم يعنى بالاختلاف، وينسى الاتحاد أو الوحدة.

«لذا لم أجد مصنفاً واحداً في القديم والحديث، عُني بالأمر البدهي أو الأصل الإسلامي، وهو وحدة الفكر والمصدر والاستنباط، لحمل الناس عليه، علماً بأن نقاط الاتفاق والاتحاد أكثر بكثير من نقاط الخلاف والخصام والتعصب المذهبي.

«إننا، نحن العلماء، آثمون أشد الإثم، من حيث ندري أو لا ندري، إذا لم نعد حساباتنا، ونفكر في مصائرنا، ونعمل من جديد على إعادة وحدة الأمة في السياسة والاقتصاد، والاجتماع والاعتقاد، والاجتهاد والاستنباط، والتربية والتعليم، والتوجيه والتثقيف، وبناء حياة مزدانة بكل عناصر القوة والمجد، والجدية والنهوض من الكبوات، ونسيان الخلافات الماضية التي ليس لإثارتها أو إحيائها أو التحدث فيها أس معنى، بل إنها سم زعاف، وضرر محض، يؤدي لإحياء الحديث في تلك الخلافات التي تفرق ولا تجمع، تهدم ولا تبني، وتمزق ولا ترقأ، وتضعف ولا تقوي أو تعالج،وتثير النزاع ولا تؤاخي أو تضمد الجراح.

«إنني أشك في أمانة العالم أو المؤرخ، الذي يكثر من الحديث أو التحقيق أو الإعلان أو المقال الآن عن جراح الماضي، وما أدت إليه من

الفرقة المذهبية، والتشتت الوجداني، والضياع القائم، وما على العالم أو الفقيه إلا أن ينبه إلى العمل بأوجه اللقاء والتفاهم، والترفع عن الأحقاد والخصومات، وتناسي الثارات، والعمل على صعيد مشترك يحقق الوحدة الإسلامية.

«إنني أعيد الحساب بنفسي، لعل غيري يقلدني، ويبدأ الجميع في نسج فكر واحد، وبناء مجد واحد، والتصدي لعدو شرس خطير واحد، فهل من متذكر أو مستجيب؟

«إن الصلح في الفكر والتراث وكل النزاعات، ولا سيما أمام المخاطر، هو جوهر صفاء الدعوة إلى الله وإلى الإسلام الحق، وإلى الوجود الدولي الإسلامي الواحد»[1].

---

(١) الدكتور وهبة الزحيلي. (نقاط الالتقاء بين المذاهب الإسلامية) مجلة المنهاج، العدد ٣، السنة الأولى ١٩٩٦م، (بيروت) صفحة ٣٤.

ثبت المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم.

٢. الآلوسي، محمود، روح المعاني في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م.

٣. الآمدي، عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٤. ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي، العزلة والإنفراد، دار الوطن، الرياض ١٩٩٧م.

٥. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم، إيران ١٤٠٥هـ.

٦. ابن عساكر، الحافظ علي بن الحسن، (ترجمة الإمام علي)، تاريخ دمشق، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م، تحقيق محمد باقر المحمودي.

٧. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الصادر، بيروت ١٩٧٩م.
٨. ابن عاشور، محمد طاهر، تفسير التنوير والتحرير.
٩. البدري، عبد العزيز، الإسلام بين العلماء والحكام، منشورات المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ١٩٦٦م.
١٠. بدوي، الدكتور عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
١١. البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري.
١٢. البيانوني، الدكتور محمد أبو الفتح، دراسات في الاختلافات الفقهية، مكتبة الهدى، حلب ١٩٧٥م.
١٣. بحر العلوم، محمد، الإجتهاد أصوله وأحكامه، دار الزهراء، بيروت ١٩٧٧م.
١٤. تبليغات إسلامي حوزة علمية، قم، حوزة، مجلة شهرية باللغة الفارسية، عدد ٢٣.
١٥. التنكابني، محمد بن سليمان، قصص العلماء، دار المحجة البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
١٦. التوحيد، مجلة إسلامية شهرية، طهران، العدد ٦٨، تشرين الثاني ١٩٩٣م.
١٧. الحراني، محمد بن الحسن بن شعبة، تحف العقول فيما ورد عن آل الرسول، الطبعة الخامسة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،

بيروت ١٩٧٤م.

١٨. الحر العاملي، محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، قم، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١٩. الحراني، أحمد بن تيمية، منهاج السنة، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر ١٣٢١هـ.

٢٠. الحكيمي، محمد رضا ومحمد علي، الحياة، الدار الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.

٢١. الحكيم، السيد محسن الطباطبائي، مستمسك العروة الوثقى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٢. الحكيم، السيد محمد تقي، الأصول العامة للفقه المقارن، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م.

٢٣. حيدر، أسد، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧١م.

٢٤. الخاقاني، علي، شعراء الغري، الطبعة الثانية، مكتبة آية الله العظمى المرعشي، قم ١٤٠٨هـ.

٢٥. الخميني، روح الله الموسوي، الحكومة الإسلامية.

٢٦. الخونساري، محمد باقر، روضات الجنات في تراجم العلماء والسادات.

٢٧. الريشهري، المحمدي، ميزان الحكمة، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٢٨. الزحيلي، الدكتور وهبة، التفسير المنير، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

٢٩. الزحيلي، الدكتور وهبة، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٩م.

٣٠. الزحيلي، الدكتور وهبة، (نقاط الالتقاء بين المذاهب الإسلامية)، المنهاج، مجلة فصلية، بيروت، ١٩٦٦م.

٣١. السبحاني، الشيخ جعفر، الملل والنحل، الطبعة الأولى، قم، ١٤٠٨هـ.

٣٢. السبزواري، السيد عبد الأعلى، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، مؤسسة أهل البيت، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٠م.

٣٣. السعدي، الشيخ عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، بيروت، دار الذخائر، مؤسسة الريان، ١٩٩٧م.

٣٤. السندي، أبو الحسن الحنفي، شرح سنن ابن ماجه، دار الجيل، بيروت.

٣٥. الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

٣٦. شرف الدين، علي عبد الكريم الفضيل، الزيدية نظرية وتطبيق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

٣٧. الشيرازي، السيد محمد الحسني، الوصول إلى كفاية الأصول، دار الإيمان، قم، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.

٣٨. الشيرازي، السيد محمد الحسيني، نحو يقظة إسلامية، دار العلوم، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧م،

٣٩. الشيرازي، السيد محمد الحسيني، السبيل إلى انهاض المسلمين، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

٤٠. الشيرازي، السيد محمد الحسيني، الفقه ـ الحكم في الإسلام، الطبعة الثانية، دار العلوم، بيروت، ١٩٨٩م.

٤١. الشيرازي، السيد محمد، شهر رمضان شهر البناء والتقدم، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٤٢. الشيرازي، السيد محمد الحسيني، ايصال الطالب إلى المكاسب، مؤسسة الأعلمي، طهران ١٤٠٨هـ.

٤٣. الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مؤسسة البعثة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

٤٤. الصدر، السيد محمد باقر، اقتصادنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٩١م.

٤٥. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، من لا يحضره الفقيه، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الخامسة ١٣٩٠هـ.

٤٦. صعب، الدكتور حسن، علم السياسة، دار العلم للملايين،

بيروت، الطبعة السابعة ١٩٨١م.

٤٧. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٩١م.

٤٨. الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٤٩. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٥٠. الطريحي، محمد سعيد، الموسم، مجلة فصلية تراثية.

٥١. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، مؤسسة الوفاء، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

٥٢. الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، مطبعة النعمان، النجف، الطبعة الثانية ١٩٥٩م.

٥٣. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٥٤. العاملي، زين الدين، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، مجمع الذخائر الإسلامية، قم ١٤٠٢هـ.

٥٥. عبد السلام، فاروق، الإسلام والأحزاب السياسية، مكتب قليوب للطبع والنشر، القاهرة ١٩٧٨م.

٥٦. الإعتمادي، مصطفى، شرح الرسائل، مكتبة العلامة، قم،

الطبعة الثانية.

٥٧. العسكري، مرتضى، مقدمة مرآة العقول، دار الكتب الإسلامية، طهران ١٤٠٤هـ.

٥٨. العمران، الشيخ فرج، الأزهار الأرجية، مطبعة النجف ١٣٨٣هـ.

٥٩. العمري، نبيل، فتح المنان إلى شرح وتحقيق المسند الجامع للإمام الدارمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، المكتبة المكية، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٦٠. عيسى، عبد الجليل، ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين.

٦١. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، طبع دار المعرفة، بيروت.

٦٢. فضل الله، محمد حسين، الإسلام ومنطق القوة، الدار الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨١م.

٦٣. الفيصل، مجلة أدبية شهرية، الرياض، العدد ١٣٥، رمضان ١٤٠٨هـ.

٦٤. القشيري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم.

٦٥. القرشي، باقر شريف، حياة الإمام موسى بن جعفر، الطبعة الثانية ١٩٧٠م.

٦٦. القرشي، باقر شريف، حياة الإمام زين العابدين، دار الأضواء،

بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

٦٧. القرضاوي، الدكتور يوسف، الصحوة الإسلامية بين الإختلاف المشروع والتفرق المذموم، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.

٦٨. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٦٧م.

٦٩. الكاشاني، المولى محسن الفيد، المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، الطبعة الثانية، قم، إيران.

٧٠. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ.

٧١. الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، المكتبة الإسلامية، عمّان، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

٧٢. آل نجف، عبد الكريم، (السيد هبة الدين الشهرستاني طليعة التحديث الإسلامي)، التوحيد، مجلة فكرية شهرية، طهران.

٧٣. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

٧٤. محمود، الدكتور علي عبد الحليم، جمال الدين الأفغاني، دار عكاظ للطباعة والنشر، الرياض.

٧٥. المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، المصلح الإسلامي السيد محسن الأمين، طبع سنة ١٩٩٢م.

٧٦. المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، المطهري العبقري الرسالي.

٧٧. المسلمون، جريدة أسبوعية، لندن، بتاريخ ١٣/ ٧/ ١٤١٢هـ.

٧٨. المطهري، مرتضى، الاجتهاد في الإسلام، مؤسسة البعثة، طهران، ترجمة جعفر صادق الخليلي.

٧٩. المقدسي، محمد بن عبد الواحد، فضائل الأعمال، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٨٠. المنتظري، حسين علي، دراسات في ولاية الفقيه، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٨١. الموسوي، الشريف الرضي، نهج البلاغة.

٨٢. الأمين، السيد محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

٨٣. الأميني، عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٤١٤هـ.

٨٤. النبهان، الدكتور محمد فاروق، المدخل للتشريع الإسلامي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨١م.

٨٥. النبهاني، يوسف، وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٠م.

٨٦. الندوي، أبو الحسن، المرتضى، دار القلم، دمشق ١٩٨٩م.

٨٧. النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الرابعة.

٨٨. الأنصاري، سعد، الفقهاء حكام على الملوك، دار الهدى، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

٨٩. الهندي، علي المتقي بن حسام الدين، كنز العمال، الطبعة الخامسة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٩٠. الهيثمي، أحمد بن حجر، الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، مكتبة القاهرة، ١٣٧٥هـ.

٩١. هويدي، فهمي، أزمة الوعي الديني، دار الحكمة اليمانية، صنعاء اليمن، ١٩٨٨م.

٩٢. اليزدي، السيد محمد كاظم، العروة الوثقى.

٩٣. يكن، فتحي، الموسوعة الحركية، دار البشير، عمّان، الأردن، الطبعة الثانية.

الفهرس

الفصل الخامس: أخلاقيّات الاختلاف العلمي

عنوان المؤلف

المملكة العربية السعوية
ص.ب: ١٣٢٢ القطيف ٣١٩١١
هاتف: ٨٥٥٥٢١٠ ٣ ٩٦٦+
فاكس: ٨٥١٢٦٠٠ ٣ ٩٦٦+
الموقع على الإنترنت: www.saffar.org
البريد الألكتروني: office@saffar.org